وزارة الثقافة

في السرير

تأليف: محمد العدناني

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

في السَّرير

تأليف: محمد العدناني

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٧

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: محمد العدناني

اسم الكتاب: في السَّرير

الطبعة الأولى: ١٩٤٧

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات

تصميم الغلاف: فاطمة حسين

لوحة الغلاف للفنانة: صوفي حلبي

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب ومحبته للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٢٢

الإهداء

وما أنا لولا الأصدقاء سـوى فتى

عليـه الرزايا الماحقات تصولُ

فإني بجسـمي الواهنِ القلبُ

واحـد ولكنني بالأصدقاء قبيلُ

إلى الـذي أوحـي إليّ وداده هذيـن البيتـين، والـذي حبَّـب إليّ وفـاؤه وبـه الحيـاة فعـدت إليهـا بعـد أن وطئـت قدمـي اليـسرى عتبـة المـوت، إلى أخـي وتـوأم روحـي الأسـتاذ نافـذ الحسـيني أهـدي هـذا الكتـاب علنـي أُوفّيـه بـه بعـض مـا لـه عـلى قلبـي مـن أيـاد، وعـلى روحـي مـن إسـعاد.

محمد العدناني

مقدمة الكتاب

هـذه قصـة حقيقيـة وقعـت لي حوادثها إبّـان مـرضي الطويـل، وفيهـا مـن الحـوادث الطريفـة وغرائـب المصادفـات مـا يجعلهـا أقـرب إلى الخيـال منهـا إلى الحقيقـة. ولم أنشرهـا إلا لأشـيع بـين بنـي قومـي روح التفـاؤل في زمـان يـكاد يدعـو فيـه كل شيء إلى التشـاؤم.

فعـسى أن أنال بهـا رضى أبناء الضاد والله وليّ التوفيق.

(١)

الليل ساج لا يطرف بعينيه لئلا يفوته مشهد غرام من المشاهد التي كان يقوم بتمثيلها البدر والنجوم؛ فواحدة يئست من هوى البدر ولقائه فشبت النار في قلبها وهوت من عليائها إلى الأرض صريعة وجدها، وأخرى اضطرمت شوقا إلى وصاله وعزاؤها أنها تحترق من أجله على مرأى منه، وثالثة فتنها حسنه، وقد هدف إلى الرابعة عشرة، فراحت تغمزه وتغمزه وهو صارفٌ عنها يطارد نجمة أخرى يبثها وجده ولوعته، ويشكو إليها السيد الذي مناه به حبها، ولكنها لا تُعيره التفاتا ولا تُشكيه، وكلما اقترب منها ابتعدت عنه وهو لا ينى يطاردها ولسان حاله يقول:

إنّ التي كنت أرجو أن تُواصلني

صدّت وواصل من لم يبعث الأرَقا

والكون نشوان من أريج الثور الضائع. والنسيم العليل تيته الطبيعة الحالية بأثواب الزهر الملفوفة كأنها عروس تُجلى عليه، فَتبَلَه الهوى وارتمى على قدميها، فلا تسمع له هَيْنَمَة ولا تحس له رِكْزا.

في تلك الليلة الفاتنة من ليالي نيسان عام ١٩٣٥م؛ لم يكد الشاعر «طريف» يترك حديقة المنزل الغنّاء ويأوي إلى فراشه حتى غرق في سبات عميق حافل بأحلام لذة، وأطياف فاتنة أعارها الربيع جماله ورقته وأريجه.

بينـما كان طريـف هانئـا بطيـوف الكـرى وحوادثـه الممتعـة إذا بـه يسـتيقظ مذعـورة مسـتبدلا أحلامـه التـي كان يسـبح في عبابهـا ببركـة مـن الـدم السـخين، فأيقـظ مـن في البيـت لينجـدوه وإن هـي إلا دقائـق حتـى كان الهاتـف قـد حمـل الطبيـب عـلى الإسراع في القـدوم إلى بيـت الشـاعر المنـزوف لإنقـاذه ولكـن يـد اللـه كانـت أسرع منـه فأوقفـت النـزف وخفّـت وطـأة الهلـع.

دخـل الطبيـب البيـت واندفـع نحـو طريـف، فأمسـك معصمـه بيـده اليمنـى متحسسـا النبـض، بينـما كانـت يـسراه تفـرك عينيـه اللتـين كـمان الكـرى مـا يـزال عالقـا بمعاقـد أجفانهـما. وبعـد أن أتـم الفحـص التقليـدي متثائبـا، طلـب إلى المريـض أن يـأتي إلى عيادتـه في صبـاح اليـوم التـالي ليعطيـه الجـواب النهـائي عـن نـوع مرضـه، وانـصرف بعـد أن نُقِـد الأجـر الليـلي، وهـو لعمـري أجـر باهـظ، ولكـن متـى كان الليـل يخطـب ود الرحمـة حتـى تُعَبِّـدْ سـبيلها إلى مُهجتـه.

حـاول طريـف أن ينـام فلـم يسـتطع. وأنى لـه أن ينـام وقـد أصابـه القـدر بسـهمه فحـال بينـه وبـين أحـب الفصـول إليـه، فصـل الربيـع الـذي كانـت فيـه نفسـه تطـير بأجنحـة الخيـال مـا شـاءت لهـا المنـى أن تطـير لا تعـرف حـدا ولا تجيـد حائـلا ولا قيـد.

هالـه أن يُحـرم تدخـين النارجيلـة عـلى نبـع البـادان ربيـع عـام ١٩٣٥ وربمـا إلى الأبـد - وألا يشـنف أذنيـه خريـر الجـداول الرقراقـة موقِعـة أنغـام الحنـين إلى الـوادي حـين تنسـاب عـلى السـفوح مسرعـة إلى لقائـه.

ثم مرت على صفحة الذكرى أشباح ماضيه حين كان أستاذا في العراق يغرس في الشباب روح العروبة ويمد الصفات العربية ويدعو إلى المحافظة عليها، وما لاقاه من محبة وإكرام من أبناء القطر الشقيق الناهض، فآلمه أن يدهمه الخطر على حين غرة فيجرفه أمامه قبل أن يرى نهضة قومه في أوجها بعد أن لاحت له تباشيرها، وروّعه أن يحال بينه وبين أن يره الجيل إلى نفر من حماية العرب في بلاد الرافدين كانوا قد غمروه بحبهم وأنزلوه وأدبه من قلوبهم منزلة سامية كانت خير مُشجع له على المضي فيما وقف عليه قُواه وجهوده من خدمة العربية وآدابها.

وبينما كان ملف الذكريات يمر أمام بصيرته إذا بطفله ووحيده «نزار» يصحو طالبا الماء، فينسى النزيف ما جرى له ويقذف بنفسه عن السرير ليروي ظمأ ابنه الباكي. أما تجهم الطبيب حين فحص الصدر، وإلحاحه عليه بوجوب السكون المطلق في الفراش، فقد مَحَتْهُما العاطفة الأبوية من الذاكرة.

نظر إلى وحيده بعد أن شرب ونام، فرأى نور الطفولة يشع من وجه، وبراءتها وطهارتها مرتسمين على محياه، فوسوس له الشيطان أنه إذا قضى به أن يجد طفله وهو يتيم من يعطف عليه أو يمد إليه يد المعونة، فجن جنون الأب، واشتدت وطأة الحي عليه وألهب ذلك الخاطر المفاجئ دماغه، فجلس في سريره، وكل جارحة فيه مستعدة لذود الردى وكفاحه، وقال: «لا، لا أريد أن أموت، سأعيش من أجل هذا الطفل». وظل يقظان حتى الصباح.

(٢)

كان الداخل إلى مستشفى (ك) حين يدنو من الغرفة التي في صدره. يجد السكون مخيّما لا يصدعه بين الفينة والأخرى غير همات الممرضات أو الأطباء عند خروجهم من تلك الغرفة تتبعهم سيدة ساهمة الوجه، كاسفة البال، وعيناها زائغتان تحدقان في محيا إثر آخر متحريتين معرفة الحقيقة أو جزء منها ولا تفوزان بطائل.

أمسكت تلك الأم بيدها طفلا حَبا إلى الثالثة من عمره يرى الناظر إليه أن ألمه لمرض أبيه قد حزّ في نفسه فشارك من حوله وجومهم كأن مرح الطفولة وحركتها لا سلطان لهما عليه.

تراوحت درجة الحرارة بين الأربعين والحادية والأربعين مئوية (سنتغراد)، وكانت حلقة الخطر تضيق حول طريف باطراد ولكنه لم ييأس من رحمة الله.

وقفت رئيسة الممرضات ذات صباح على باب غرفته وسألته ممرضة الليل هامسة: «ألا يزال حيا؟» فأجابها المريض: «لا يزال» فخجلت من نفسها ولم تدخل غرفته في ذلك اليوم إلا مرة واحدة حياء منه وندما على ما فرط منها. أما المريض فقد حمد ربه لأن الصباح أدركه وهو ما زال حيا، وعزريل كالخماش قلما يغفو ليلا.

قــرر الأطبــاء -بعــد الاســتعانة بالأشــعة- أن المــرض هــو ذات الجنــب (wet Pleurisy) وفي الرئــة اليــسرى مــاء، وفي ذلــك اليــوم ســجل الشــاعر في مذكرتــه مــا يــلي:

نـاوش الداء أخت قلبي فَحطّم

كل أنثـى ضعيفة حين تُعجَمْ

رئـة تنفثُ النَّجيع وثَغْر

رَبِّ بالشـكر والثَّنا يَترنَّم

عَـبراتُ الجفون جفت، فراحت

عـبراتَ الفؤاد تُذرف في الفمْ

والسُّـعالُ المُمِضُّ يَنفضُ عَيـ

نيَّ دراكا هيهـات هيهات يَرحمْ

وفُـؤادي يكاد يُفلتُ من صـَ

دري لينجـو من البلاء المُحتَّمْ

وعليه من الدّماء رِداءٌ

طَرَّزَتْهُ يد الجُناب المُسَـوَّمْ

* * *

يـا حَبيسَ الضُّلوع أصبحت مثلي

تبتغيهـا حرية مهرها دَمْ

هــي عدي أغلى وأحلى كثيرا

مـن حياة أصفادها لم تُحطّمْ

إنمـا الموت عَتْقُ روحي فتغدو

حـرة في الجنان لا تتألمْ

* * *

بـدأت الحـرارة بعـد أيـام تنخفـض تدريجيـا، وسـمح الأطبـاء للأدويـة بزيـارة المجنـوب فجاءه أصدقـاؤه الخُلّـص وفـودا وهداياهـم باقـات الزهـر الجميلـة الأرِجـة حتـى ضاقـت بهـم وبأزهارهـم الغرفـة، وإن لم يضـق صـدر المَعُـودِ. وحـلّ الربيـع في الغرفـة مـكان الخريـف بعـد أن جثـم فيهـا بضعـة أيـام لا يتزحـزح عـن مجثمـه. وعـرف طفلـه محبـة أبيـه للأزهـار فصـار يتخاصـم صبـاح كل يـوم مـع أمـه ليسـتأثر دونهـا بتقديـم الباقـة التـي جنـت أزاهيرهـا مـن حديقـة المنزل. كان الأب يفـرح كثـيرا بعطـف وحيـده وإن كانـت الأم الغيـور لم يـرق لهـا هـذا كثـيرا. والغـيرة عـلى النسـاء سـلطان -لـو يعترفـن- عظيـم.

وكان بـين عـواده أشـخاص لم تتصـل بينـه وبينهـم أسـباب المـودة وكان بينهـم مـن لم يـر لـه وجهـا مـن قبـل أو يسـمع باسـمه. ولكـن محبتهـم الجامحـة

-للممرضات لا للمريض والحمد لله- واضطرام عواطفهم وخوفهم من عصيان أمر كيوبيد، كانت هي الدوافع التي حملتهم على إرهاق مريضنا عصر كل يوم بزياراتهم غير الخفيفة. وكانت عيونهم الشرهة مفتوحة كأفواه التماسيح لالتهام ملائكة الرحمة اللواتي يقضي عليهن سوء طالعهن بالعمل بعد الظهر.

هذا يطلب كأسا من الماء، فإذا لم تأته بها الحمامة – أي الممرضة لأن ثوبها أبيض كالحمامة - التي يجب، أبى أن يأخذها من الممرضة واستكبر، ورفع عقيرته بالشكوى من المستشفى وإدارته، لأن غزاله نفر منه ولم يلب طلبه، كأنما الأطباء إنما وجدوا ليكونوا من تجار الرقيق الأبيض. لا ليقوموا بتخفيف ويلات الأوبئة وآلام الانسانية.

أما ثالثة الأثافي، فشاب لو بعث دارون من قبره ورآه لطار فرحا إذ يرى فيه البرهان الملموس لتحقيق نظريته. إنه الحلقة المفقودة من غير شك، وما الفرق بينه وبين الشمبانزي إلا أنه يتكلم والشمبانزي أعجم. جاء روميو هذا ورجا مريضنا أن يكون رسوله إلى إحدى الممرضات فيعطيها كتابه الغرامي حين تأتيه بطعام العشاء حُبا بالإنسانية وإنقاذه لروحه الطاهرة الوالهة من أن يخترمها الردى. وإن لم ينزل طريف عند أرادته يقيم الغُورانزي – كلمة نحتها المؤلف من الغوريلا والشمبانزي - على الانتحار فيخسر الكون عبقريته الكسيحة وتحرم العيون من التمتع بمرأى وجهه المطرز بأنيابه البارزة وأنفه الأفطس وعينيه الشبيهتين بحبتي ترمس. أصغى إلى كلامه وهو يحرق الأرم حتى إذا انتهى لم يجد الشاعر أمامه غير ديوان المتنبي، فضربه به

على أم رأسه ضربة شديدة طارت لها جلدة الديوان، وأحدثت رنينا كأن جمجمته رأس تمثال مثقوب لا يملأه غير الهواء. وكثيرا تمنى لو كان معه سيف المتنبي لا ديوانه، إذن لأطاح به رأسه وضمن لنفسه الجنة بقتله أحد أعوان إبليس.

لم تطل الحال كثيرا على هذا المنوال مع تلك الحشرات السامة، بل قطع دابرهم وحرمهم بأمر الطبيب من دخول المستشفى. ولو لم يحل طريف بينهم وبين تماديهم في غيهم لأصبح المستشفى -بيت الرحمة- بيتا للفساد ومُنتجعا لأحط القُصاد أخلاقا والعياذ بالله.

(٣)

للمستشفى مديرة عامة أجنبية تراقب ممرضاته، وتُشرف على مطبخه وخادماته. ركبت رأسها، وتمادت في كبريائها واحتقارها الناس، وخيل إليها أن ملاطفة المرضى وذَوبهم إياها إنما نتجت عن خوفهم منها، وتفاديهم من سماع كلماتها القارصة وايعازاتها التافهة. ولم بخطر لها ببال أن اللياقة تتطلب من الرجال أن لا يمسوا شعور الجنس اللطيف. ومما زاد في غرورها، وجعل شخصيتها تتضخم ارتجاف الممرضات المسكينات رعبا منها ومن سلاطة لسانها؛ لأن مصيرهن في النجاح والتوظيف منوط بها. إذا شتمت الممرضة منهن يجب أن

لا تتجاسر وتنظر إلى سيدتها، بل يجب أن تنظر إلى الأرض بعين الذل والانكسار وإلا حاقت بها النقمة الكبرى والداهية الدهياء. ومعظمهن يَعُلْنَ بمرتبهن الضئيل عائلات تعتمد في كل شيء عليهن.

خُيِّل إليها، وهي جالسة في غرفتها على كرسيها الخيزران، أنها كسرى أنو شروان، وغرفتها الايوان، وعصاها الصولجان فبأي آلاء ربكما تكذبان، فَصَعّرتْ خدها وشمخت بأنفها، وتاهت على الأطباء والمرضى والعُوّاد، وحسبت نفسها عنترة بن شداد وحية بطن الواد.

جاءت صباح أحد الأيام فوجدت زوج الشاعر وابنه يعودانه، فطلبت إليهما مغادرة المستشفى حالا، لأن موعد الزيارة بعد الظهر إلا قبله، فأفهمها طريف بلطف أن رفاقه يزورونه بعد الظهر وهم كثر والحمد لله، وأن كبير الأطباء سمح بزيارة أهله في الصباح. ولكنها لم تكد ترى رقة البهجة في عبارته حتى ضربت الأرض برجلها ضربة جبارة كادت تتزلزل منها أركان الغرفة، وأصرت على خروجهما في الحال. نسي أنه مريض، وأن مخاطبته سيدة، وهاله أن تهان زوجه على مرأى منه ولا يدافع عنها فصاح صيحة مجلجلة قفَّ لها شعر رأس المديرة، ودوت في أرجاء المستشفى، وقال لها: «اغربي عن وجهي أيتها الخرقاء». فغربت بسرعة وركبتاها تصطكان هلها ولو لم يجيء الطبيب لاسترضائه، ويلطف من سَوْرَة غضبه، ويعتذر عن المديرة العصبية، لما بقي في المستشفى دقيقة واحدة. وما قيمة الحياة إذا ثلم الإباء؟ وهل يملك الشاعر غير أدبه وعزة نفسه؟

ظلت الزوج تعود طريفا صباح كل يوم، أما المديرة فقد سكتت على مضض. وصارت تتحاشى عن غرفة المريض في تفتيشها اليومي. وقد زارته مرة وبدأته تحية الصباح -على غير عادتها مع المرضى- وعيناها في الأرض وسألته عن صحته فأجابها بما تستحق من خشونة فخرجت

من غرفته مهرولة وكان ذلك آخر عهده بها. ولو لم يُنَزِّهْ شعره عن الهجاء لأقذَعْ في هجائها وأبدع، وعلمها كيف يجب أن تعامل المرضى. ولكنه اكتفى بدرس تأديبي واحد.

أما عن سرور الممرضات والمرضى والموظفين والخدم بما لحق الرئيسة، فحدث ولا حرج، وصارت الممرضات يتسابقن إلى غرفة الشاعر كلما قرع الجرس حبا في كسب رضاه. وحين عوفي بعد أسبوع ونوى العودة إلى بيته، ضاقت الغرفة -على رحبها- بمرضى المستشفى وممرضاته وموظفيه لوداعه وشكره على فوزه الأبلج في إيقاف المديرة ذات المُنْجُهِيّةِ عند حدّها.

(٤)

بقي في بيته يومين اثنين ثم عاد إلى المستشفى؛ لأن الحمى هاجمته هجوما عنيفا رج كيانه رجا وكاد يودي به لولا أن تداركه الله برحمته وأنقذه مرة أخرى من بين براثن الموت وهو يهم أن يُنشبُها فيه.

زاره يوما أخوه الأكبر، وكان ذا وجاهة وثروة، فهرع إليه طبيب من معارفه، يعمل في المستشفى مؤقتا، ورحب به أجمل ترحيب. ثم أراد أن ير به مهارته الفائقة في الطب فطلب إلى الممرضة إحضار فيلم الأشعة الذي أخذ الصدر المريض. وبعد أن قرأ في اللوحة نوع المرض وضع الساعة على ظهر طريف وصدره، وأمسك بعد ذلك بالفيلم وراح يرى الزائر ظل الماء (الرشح الرئوي) في الرئة اليمني.

تـرك لـه طريـف المجـال الـشرح الـوافي بضـع دقائـق، حتـى إذا مـا انتهـى منـه قـال لـه بـكل بـرود:

- أرجـو أن تقلـب الفيلـم يـا دكتـور لأن الرشـح في الرئـة اليـسرى لا اليمنـي.

فاحمـرّ وجـه الطبيـب المُدّعـي خجـلا وتوقـف عـن الـكلام. وعندمـا خـرج الأخ العائـد عاتـب الطبيـب المريـض بقولـه:

- لمـاذا لم تقـل لي، قبـل أن أغصـك، إن رئتـك اليـسرى هـي المصابـة لا اليمنـى.

- لا تؤاخـذني يـا دكتـور. إني أخطـأت وسـأخبرك عـن إصابـة الرئـة اليـسرى عندمـا يعـودني شـخص آخـر عزيـز عليـك كأخـي.

ليـس في الدنيا أثقل ظلا من المدَّعين.

ظـل طريـف ملازمـا سريـره أسـبوعين وصحتـه في تحسـن مسـتمر، وعيـادة أصدقائـه متواصلـة. ولم يعكـر عليـه صفـوه إلا زيـارة مريـض يحـل في الغرفـة المجـاورة لغرفتـه. كان هـذا مصابـا بالـدرن الرئـوي ويحمـل جرثومتـه، الأمـر الـذي جعـل طريـف يتجنـب لقـاءه ويتظاهـر بالنـوم كلـما أحـس بأقدامـه متجهـا نحـو الغرفـة، مـع أنـه كان دمـث الخلـق، حلـو المعـشر، طيـب القلـب. ولكـن عـين اللـه لا تنـام وسـنرى قريبـا كيـف انتقـم العـادل عـز وجـل مـن الشـاعر الـذي جـرح عواطـف جـاره.

وبغرفـة أخـرى حـل ضيـف جديـد قـزم، خفيـف الـروح إلى حـد بعيـد، وكان

حديثه يروق جدا لجاره الشاعر فجعله سميره وأنيسه، وما زاد في حبه له أن طريفا صار في الأوقات التي يسمح له فيها مغادرة الفراش، يمر بجاره الجديد ويمشي معه متأبطا ذراعه إلى شرفة المستشفى المطلة على الشارع لكي يرى الحياة المتحركة الصاخبة، ويبدو عملاقا بجانبه وتختفي حقيقة قِصره عمن يَراه.

يستطيع صاحبنا أن يتخيل كيف تغتذى حرفة الأدب من أعصاب المازني وجوارحه فَيَلْصب جلده بلحمه وينكمش كالثوب بعد غسله، لا سيما وقد هدف إلى الستين أو كاد - وُلد - مد الله في حياته- في ١٩ آب (أغسطس) عام ١٨٩٠، فاعرفن هذا يا عذارى النيل واكففن عن مطاردته وُلد - مد الله في حياته- في ١٩ آب (أغسطس) عام ١٨٩٠، فاعرفن هذا يا عذارى النيل واكففن عن مطاردته -. أما سر تقلص جاره القزم وهو على عتبة الثلاثين، فقد فاته إدراكه بعد ما أكد له حضرة المتقلص أن إنتاجه الأدبي لا يتعدى كتابا غراميا نقله بخط يده من أحد الكتب المطبوعة وأرسله إلى حبيبته ليلى التي لم تكن قد تجاوزت الخامسة والأربعين من عمرها بعد.

قلما رآه الطبيب أو الممرضة في غرفته، وكثيرا ما كانوا ينشدونه في غرفة طريف؛ فيختفي وراء الباب حتى إذا ما ولجه الناشد وتقدم خطوة أو خطوتين، باغته من ورائه بزعقة عالية يطير لها لُبّ المسكين الداخل ويكاد قلبه يغادر محبسه من شدة الهلع، ولكن لطف مداعباته، جعلهم يتقبلونها بصدر رحيب دون ما تأفف.

أثبت الفحص أنه مصاب بالزائدة الدودية. ولم يدر الشاعر أكان مصابا بها أم كانت مصابة به، لأنهما -مع المبالغة- في الحجم سواء. جاء طريفا قبل العملية الجراحية ببضع ساعات وسلمه كيس نقوده وفيه سبعة قروش، وخاتم نحاسي أخضر اللون من التفاعل الكيماوي، وقلم رصاص سرقه على الأرجح من دار الآثار، وساعة جيب ذات عقرب واحد لا يمشي إلا إذا وضعت أفقيا وإلا أبَتِ التكتكة. هذه الثروة الضخمة كافة، أوصى بها إلى خطيبته ليلى، تؤول إليها دون مزاحم، فيما لو قضى نحبه قبل أن يخرجه الجراح من بطن الزائدة الدودية.

ولكن الله عز وجل رأف به وبقده المشوق وأنقذه من شر الموت لكي يشرف على حراسة ثروته بنفسه.

في مطلع الأسبوع الرابع غادر طريف المستشفى للمرة الثانية.

(٥)

قضى طريف في البيت شهرين، كان أحب شيء إليه خلالها هو الجلوس على الكرسي الجديد في الحديقة، محاطة بالأزهار في ظل أشجار الصنوبر وشجرتي الحور اللتين كان حفيف أوراقهما يوقع أنغاما شجية رقيقة، ينام على إيقاعها كما ينام الطفل حين تهدهد أمه سريره منشدة أغرودة النوم بصوت أغَنْ حنون.

أما العصافير والبلابل، فقد كانت تشارك الحمائم في نهر الحب الذي يرميه لها. وإن هي إلا بضعة أيام، حتى أصبحت تلك الطيور تنزل

إلى الأرض حين تراه في السابعة صباحا مقبلا نحو كرسيه، وبيده صحن الحب. فإذا تأخر في بذر ما لديه، وعيل صبر الحمائم هاجمته مهاجمة الحبيب للحبيب. فهذه على ركبته اليمنى، وتلك على اليسرى، وثالثة على ساعده الأيمن؛ ورابعة على الأيسر، والحَبُّ هدفهن جميعا. وتلك البلابل الغردة، والعصافير الصداحة التي كانت تحوم حوله كما يحوم النحل حول الزهر، ولكن دون أن يشتار، كم وَدّ لو أنها واصلته مواصلة الحمام وأنست إليه كما تأنس إلى أوكارها.

لم يعكر عليه صفو تلك الأيام غير أجير الفرّان، الذي حَتّمَ عليه ذوقه ونشاطه أن يدق الجرس دقا متواصلا في الخامسة من صباح كل يوم طالبا العجين. كان يحلو للشاعر النظم والمطالعة في الليل، وقلما نام قبل منتصفه، والأجير المحترم قلما أصغى إلى توسل أو رجاء. وأخيرا أَوْعَدَهُ بنصيب وافر من الضرب إذا جاء قبل السابعة صباحا.

قبيل الخامسة من صباح اليوم التالي دق الجرس طويلا، فنهض صاحبنا يشتم ويهدد، وذهب إلى حيث هراوته، حملها واندفع إلى الباب صاخبا لاعنا، ففتحه ورفع الحرارة يريد أن يهوى بها على رأس الأجير ولكن الغسالة التي كانت بالباب، لم تكد ترى الهراوة مرفوعة حتى زاغت وأركنت إلى الفرار بأقصى ما في وسعها من سرعة فضحك وزوجه لدى رؤيتها راكضة حتى كادا يقعان على الأرض. وقد كانت دَحلة، سمينة قصيرة، في عرض البرميل، ولا يقل وزنها عن ١٢٠ كيلو غراما وبعد ما استطاع التوقف عن الضحك، تبعها وناداها بأعلى صوته لكي تعود، ولكنها لم تعد تسمع صوته حتى سَلَّطَتْ على رجليها كل ما في كرشها

مـن بنزيـن، وطـارت بـل تدحرجـت لا تَلـوى عـلى شيء وعـاد صاحبنـا بِخُفَـيّ حنـين.

أبَـتْ زوجـهُ إلا أن تغسـل في ذلـك اليـوم. ولمـا لم تجـد غسـل الثيـاب لائقـا بهـا، انكفـأت إلى زوجهـا وغسـلته توبيخـا وتأنيبـا عـلى فعلتـه، والحمـد للـه الـذي لا يحمـد عـلى مكـروه سـواه.

(٦)

نصـح الأطبـاء طريفـة بالاصطيـاف عـلى شـاطئ البحـر لاسـتعادة قـواه، فاختـار الاسـكندرية عـروس البحـر الأبيـض المتوسـط. ومؤتّـم العـادات الرعابيـب. وذهـب إليهـا عـلى جناحـين مـن غِبطـة وشـوق.

رأي هنـاك القـوارب تمخـر بحيازيمهـا عبـاب اليـم حاضنـة الخَفِـرات الخُـرَّدِ فتذكـر أيـام بغـداد الجميلـة حـين كان يمخـر عبـاب دجلـة مـن الرصافـة إلى الجـسر بقـارب العـم طـه ومعـه سرب مـن المهـا أجَّـجْـنَ في صـدره الهـوى مـن حيـث يـدري ولا يـدرى. نذكـر تلـك الأوقـات المضيئـة في الـزوراء التـي تـرك الشـاعر فيهـا مـرق الهـوى للدكتـور زكي مبـارك فغـرق فيـه، فهاجـه الحنـين إلى أيـام الشـباب الحـارة وأراد أن يعيدهـا سـيرتها الأولى في البحـر المتوسـط حـين رأي الغيـد والبحـر والقـارب أمامـه.

نـسي أنـه مـا زال في دور النقاهـة وتذكـر أنـه عَبْـلُ الذراعـين فـراح يسـابق وحـده بمجذافيـه نوتيَّـيْن يجذّفـان قاربـا آخـر كان محاذيـا لقاربـه يقـل عـددا مـن الغـواني كعـدد الكواعـب في قـارب الشـاعر. لم يَفُـر عليهـما

طريـف إلا بعـد أن أرهـق صـدره وأعصابـه وعضلاتـه التـي لزمـت الراحـة بضعـة أشـهر فَأَلِفَتهـا ثـم هجرتهـا إلى الحركـة المُجهِـدة دُفعـة واحـدة.

عـاد إلى الشـاطئ محطـم القـوى. وحـرارة الشـمس المحرقـة صهـرت بقايـا عزمـه المحتفـظ بـه للأيـام العصيبـة. ثـم جـاء وهـج الجـمال وألهـب دمـه ففـار. وعـاوده النـزف بشـكل سريـع. وجنـى مـن اندفاعـه وراء عواطفـه ألـوان الآلام، وأنـواع العـذاب.

هـذا بعـض مـا جنـاه عليـه شـبابه العـارم. وحيويتُـهُ الفياضـة. فليصـبر لأن القربـان الـذي يُقـدَّم لمذبـح الشـباب مهـما غلـت قيمتـه وجـلّ قـدره يعتـبر زهيـدا. وِلْيَقِـرّ عينـا لأن الشـباب شرَّفـه بالوقـوف عـلى مذبحـه. ولم يتقاضـه روحَـه ثمنـا لذلـك الـشرف الـذي كللـه بغـاره. بـل اكتفـي بـأن تقاضـاه قطـرات مـن دمائـه سـفكها ليغسـل بهـا أقـدام الشـباب، فليـت أدوار الحيـاة كلهـا شـباب.

(٧)

شـد طريـف الحـال إلى القاهـرة عاصمـة العروبـة والإسـلام، حيـث يقطـن طبيـب مشـهور بدرايتـه في معالجـة الأمـراض الصدريـة. ذهـب إلى عيادتـه المكتظـة بالمـرضى فأحسـن اسـتقباله، وأجلسـه في مكتبـه الفخـم الخـاص وشرع في الاستفسـار عـن حالـه، ثـم أخـذه إلى غرفـة الأشـعة وفحـص صـدره بالسـماعة التـي كان ينقلهـا في أرجـاء صـدره كـما تنتقـل النحلـة السـجينة حـين يطلـق سراحهـا في حديقـة حاليـة بالنّـوار، لا تحـط عـلى نـوَّارة حتـى

تنتقل إلى أخرى دون أن تشتارَ، وجناحاها يوقعان بطنينهما أنشودة الحيرة والتردد.

لم يكد ينتهي من حركاته البهلوانية الخفيفة، التي قلما يتقنها غير مهرة النشالين، حتى أوقف صاحبنا وراء لوحة الأشعة، وفي سرعة البرق رأي ما في الرئة، وأخذ صورة للصدر، وأخبر المريض أن الخطب هين، وأن في أسفل الرئة اليسرى رشحا رئويا بسيطا يزول أثره تماما إذا أخلي طريف إلى الراحة التامة مدة شهرين، وامتنع عن شرب الماء البارد، وإذا أكثر من أكل اللحوم ولا سيما الطحال النَّيء.

اختفى الطبيب فجأة عن الأنظار كأنه الطيف، وبدا خادم العيادة (الترجي) أمام طريف كأنه أحد عفاريت سيدنا سليمان. أما كيف خرج ذاك ودخل هذا فلا يزال أمر مجهولا، لأنه من أسرار المهنة على ما يظهر. تقدم الخادم إلى المريض، وبحركة بهلوانية من حركات سيده سلم طريفا ألوكة مطبوعا عليها ما يلي:

وصلني مبلغ ٢٠٠ قرش مصري ثمن صورة أشعة.

تمورجي العيادة

دفع طريف المبلغ دون أن ترتجف يده. ولم تصطك ركبتاه حين ترك العيادة الكبرى التي لم يكد يخرج من بابها حتى برز له الطبيب هاشا باشا بروز العفاريت وطلب إليه أن يزوره مرتين كل أسبوع. ولما أراد صاحبنا أن يسأله عن الساعة التي يَستحسِن زيارته فيها، لم يجده

أمامـه فاكتفـى بالبسـملة وذهـب إلى البيـت لا يلـوي عـلى شيء.

أمـا كيـف أرهـق الطبيـب بعـد ذلـك جيـب الشـاعر. وكيـف كان ينتابـه النـزف. وكيـف كان يـزدرد الطحـال النـيء مرغـما، وكيـف حـرم مـن شرب الـماء البـارد في آب (أغسـطس) الملتهـب في مدينـة دافئـة جـدا كالقاهـرة. وكيـف كان ينـام جالسـا والنوافـذ مغلقـة. وكيـف حـرم مـن تقبيـل وحيـده، فهـذه أمـور لـن يذكرهـا لأنـه ضنـين بعـبرات القـراء أن تُسـفَح، وأعصابهـم أن تُرهـق، وأنفاسـهم أن تتصعّـد تخـرج بصعوبـة، فـما لهـذا كتبـت المذكـرات هـذه، ولم يحمـل –ولله الحمـد- لـواء النـدب والعويـل بعـد أن مـات عنـه المعـري والمنفلوطـي. وكأن الحطيئـة قبـل ثلاثـة عـشر قرنـا تنبـأ بمـا سـيحدث لطريـف فَعَنـاه بقولـه:

قُلـتُ لها أُصَبِّرها جاهدا

ويحـاك أمثالُ طريفٍ قليلْ

(٨)

أضـاف طريـف سـبعة كيلـو غرامـات إلى وزنـه ثـم عـاد إلى القـدس الأن تشريـن الأول (أكتوبـر) كان عـلى الأبـواب، وكانـت الحيـاة عـلى وشـك العـودة إلى المـدارس.

درس أسـبوعين أنهـك فيهـما قـواه. لأنـه لا يعـرف الاعتـدال في عملـه. حـزب مـرة أن يلقـي محاضرتـه عـن تطـور الشـعر العـربي في العـصر العبـاسي وهـو جالـس. ولم تمـض لحظـة حتـى حَمِـيَ مُحَـرِّك جسـمه الكهربـائي فنهـض

فجـأة، واندفـع يـذرع القاعـة عرضـا وطـولا، وكل جـزء منـه يشـترك في توضيـح المحـاضرة وتقريبهـا إلى الأذهـان، بحيـث لـو رآه أصـمّ لاسـتطاع أن يفهـم المحـاضرة مـن حركاتـه وأشـارته، إن فاتتـه قراءتهـا عـلى محيـاه.

في مطلـع الأسـبوع الثالـث عـاد إلى المستشـفى المـرة الثالثـة في حالـة مـن النـزف يـرثى لهـا. وقـد حـار الأطبـاء في تشـخيص دائـه وفي هـذا يقـول مـن قصيـدة:

حار الأساة فما دَروا لي عِلّة

كلّ يضجُّ من الغموض ويصخب

إلى أن لاح الفـرج في شـخص طبيـب مـن معـارف الشـاعر. جـاء هـذا مختـال في حلتـه البيضـاء وحولـه لفيـف مـن أهـل الشـاعر وأصدقائـه. فتقـدم مـن المريـض. وآمـال الجميـع حائمـة حولـه. فَنقَـف كتفـه ببنانـه نقفتـين اثنتـين. فتحتـا لـه بـاب اللغـز فولجـه ببصيرتـه ورأى أن صديقـه مصـاب بـشر أنـواع التـدرن وإن كان الفحـص البكتريولوجـي قـد أثبـت مـرارا أن جرثومـة ذلـك الـداء الوبيـل غـير موجـودة في رئـة طريـف. ولكنـه تكـرم فيخـدّر أعصـاب المريـض بقولـه. إن الشـفاء ربمـا لا يكـون مسـتحيلا، ونصحـه بالذهـاب إلى إحـدى المصحـات إذا مـا هادنـه النـزف بضعـة أيـام. ومـن سـوء حـظ طريـف أن صديقـه الطبيـب كان أميّـا في الأمـراض الصدريـة ولم يكـن قـد عالـج في حياتـه مريضـا واحـدا مصابـا بالتـدرن، وأن صديقـه الحميـم الدكتـور. ف. المتخصـص بالأمـراض الصدريـة كان متغيبـا عـن القـدس آنـذاك.

كان الطبيب الصديق معجبا بنفسه وكان راغبا في الشهرة رغبة جعلت مضجعه يقض عليه، فاهتبل الفرصة السانحة وراح يذيع بين الناس أنه اكتشف داء السل في الشاعر من دون سائر زملائه مع أن الطبيب لا يحق له كشف أسرار مرضاه. ولم يكتف بهذا، بل أسرع في إرسال تقرير طبي إلى إدارة المعارف، يخبرها فيه بمرض طريف وأنه أصبح من الموت قاب قوسين أو أدنى، مؤملا أن يؤدي موت صديقه إلى ذيوع اسمه ونشر صيته، فيتهافت الناس على عيادته ويجني من وراء ذلك ربحا وفيرا.

كانت الحكومة على وشك أن ثقيل طريفا من وظيفته لأنه تغيب عن العمل مدة طويلة. ولكنها رأت من الذوق أنه لا تقام على مثل هذا العمل، بعد ما أكد لها القطامي البارع أن عزرائيل سيتولى عنها قريبا تنفيذ هذا الأمر ويقيله من الحياة، كافيا إياها مؤونة جرح عواطفه وهو على باب الأبدية. وقد رأت الحكومة ألا تشعره بيأسها من شفائه، فأرسلت إليه كتابا تُعلّمه فيه بأنها تحتفظ له بمركزه عندها إلى أن ينفض عنه كابوس دائه.

كم كان الشاعر مدينا لادعاء ذلك الطبيب وجهله كنه دائه، إذ أتاح لطريف الفرصة من جديد، لسبر غور أصدقائه وتعرف مدى الاخلاص الذي ينطوي عليه كل منهم بعد أن أذاع الآسى المحترم نوع الداء الذي يتم في صدر صديقه وما أسرع ما تنتشر أخبار السوء.

شاء الله أن يجرح عواطف طريف صديق آخر إذ عاده يوما، صديق

حبيب إلى قلبه، أثير لديه لم يكد المريض يراه واقفا بالباب حتى انبسطت أساريره. ورحب به أجمل ترحيب، فدخل والابتسامة على وجهه، فمد إليه الشاعر يده لمصافحته، ولكنه جلس في ركن بعيدا عن صديقه متظاهرا بأنه لم ير اليد النحيلة المبسوطة إليه، تلك اليد التي، ما كان صاحبها يتوانى لحظة في بذل نفسه وتضحيتها على مذبح الصداقة إذا ما دعاه واجب الصداقة إلى ذلك، تلك اليد التي لم يكد طريف يقبضها حتى انبثقت من عينيه دمعتان كأنهما جمرتان، وهو من هو رجولة وصبرا. قابل الموت مرارا وذاق المصائب الجسيمة أشكالا وألوانا، فما تسرب إلى قلبه الجُبْنُ ولا ترقرق في عينيه الدمع. ولكنه حين رأى ثُلمة صغيرة في حصن الصداقة الأشم الذي وقف على تشييده جهوده الجبارة وأيام شبابه الحلوة، فجأه الألم وأخذه على حين غرة فكشفت دمعتاه عن كامن التياعة وسطرتا على خديه آيتين من الأمل الخائب، عبرتا أوضح تعبير عما تسكنه نفسه المكلومة.

هكذا انتقم الله لجار طريف الذي كان مصابا بالتدرن، وجعل صديق الشاعر المختار يخشى مصافحته، على خلو صدره من جرثومة المرض الذي ألصق به جهلا وعدوانا. فواحدة بواحدة والله سريع الانتقام.

لم تعرف الهزيمة سبيلا إلى صاحبها فتتسرب إلى نفسه، وقد اعتاد أن يدير المعركة التي يهزم فيها فيجمع لها وبالا على خصمه المنتصر. وهذا حمله على أن يقول لصديقه قبل ذهابه:

- إليك قليلا من ماء الكولونيا.

- شكرا. لست في حاجة إلى ذلك.

- أعرف أن غرفتي كصدري ويدي، خالية من الجراثيم المعدية والحمد لله، ولكنني أخشى أن تكون يدك قد لمست الدرابزين فانتقل إليها منه بعض الميكروبات التي لا تخلو منها المستشفيات.

احمرّ وجه الزائر خجلا، وشعر أنه جرح عواطف صديقه، فتقدم ووضع على يده قليلا من ماء الكولونيا، ثم مدها إلى طريف مودعا. ولكن صاحبنا لم يبسط يده لمصافحته، بل ابتسم في وجه العائد ابتسامة صفراء حملت كل معاني الانتقام والتبكيت والعتاب، انصرف على أثرها الصديق منكس الرأس، شاحب الوجه. وكان ذلك آخر عهد الشاعر به.

(٩)

اشتدت وطأة الداء على طريف، وازداد انتياب النزف ومقدار الدم الذي كان ينزفه، وأصبح إذا أتى بأقل حركة يتفجر النجيع السخين من رئته بشدة، وحتم عليه الأطباء أن يظل جالسا في سريره ليل نهار، ويبقى جامدا كالصنم ويتكلم هامسا، ولكنه، وهو المعلم، لم يستطع أن يكبح جماح عاداته وطباعه. وكانت غرفته تضيق، على رحبها، بوفود الأصدقاء الذين غمروه بلطفهم ومحبتهم فأكثروا من عيادته والسؤال عنه. وقد حاول مرارا أن يذعن لأوامر الأطباء، وينفذها بدقة فيستمع إلى حديث صحبه دون أن يتكلم، ولكن محاولاته كتبت عليها الهزيمة المستمرة؛ إذ لا يكاد العائد الأول يلج باب غرفته حتى يبدأ

طريـف الحديـث المتواصـل المصحـوب بالإشـارات والحـركات، ولا ينتهـي منـه إلا حـين يغـادر آخـر العـواد عتبـة غرفتـه. وكثـيرا مـا فاجـأه النـزف أثنـاء حديثـه الحـي فيخـرج العائـدون رفقـا بـه فيسـكت، حتـى إذا مـا جـاءه الطبيـب لإسـعافه، فـرّ الـكلام في أذنـه. وحافـظ عـلى السـكون والهـدوء إلى عـصر اليـوم التـالي، موعـد الزيـارة، لينـسى نفسـه مـرة أخـرى ويندفـع في محادثـة الأصدقـاء اندفـاع جلمـود صخـر حطـه السـيل مـن عـل. وإذا نجـا مـن شر النـزف يومـا واحـدا كان ذلـك اليـوم عنـده عيـدا.

كان اليـأس مرتسـم عـلى وجـوه الأطبـاء حـين خرجـوا ذات صبـاح مـن غرفـة طريـف فوجـدوا أمـه المسـكينة بالبـاب، فـأدارت بسرعـة الـبرق عينيهـا الدامعتـين في مُحيّـا كل منهـم فلـم تـرَ إلا كل مـا يبعـث عـلى القلـق، ولكـن ثقتهـا باللـه حملتهـا عـلى أن تسـأل الأطبـاء همسـا عـن حالـة ولدهـا، فلـم يكـن مـن أحدهـم إلا أن قـال لهـا بصـوت طـن في أذن المريـض:

- إن ابنـك في حالـة خطـرة جـدا، نسـأل اللـه أن ينقـذه منهـا فهـو عـلى كل شيء قديـر.

ثـم طلـب إليهـا ألا تعـود ابنهـا، لئـلا يؤلمـه حزنهـا فينـزف وتـزداد حالتـه سـوءا. فكفكفـت دموعهـا ووعدتـه بـأن تدخـل عـلى ابنهـا باشـة وتبعـث في نفسـه الطمأنينـة. فسـمح لهـا بخمـس دقائـق تـراه فيهـا عـلى أن تقتصـد كل الاقتصـاد في محادثتـه.

دخلـت الأم الحزينـة ورجلاهـا تـكادان تخذلانهـا، والعـبرات المنحبسـة تـكاد تنبجـس مـن شـؤونها، ولكنهـا خافـت أن تكـون سـببا في إحـكام حلقـة

الخطر حول ابنها، فتجلدت وقرأت الصمدية وجلست قربه مبتسمة، بعد أن طبعت على ثغره قبلة الأمومة الحارة التي جعلته يحس أن أمه جَمّعَتْ في شفتيها كل ما تبقى في جسمها الواهن من حياة وحرارة لينقله إلى طريف فَمُها الذي طالما نزلت قبلاته بردا وسلاما على قلب ابنها، عندما كانت تداهمه الكوارث فتخفف من حدتها، وتزيده قوة على احتمال أذاها.

لم يكن سرورها المتكلف ليخفى على طريف، ولكنه، برّا بها وشفقة عليها، نسي الخطر المحيق به وما صرح به الطبيب، ولم يذكر إلا واجبه البنويّ في بث الطمأنينة في نفسها، فهش ها وبشرها بقرب شفائه ولكن سطور الخطر التي بدت في عينيه الذابلتين وعلى أساريره كانت شاهدة على خطأ أقواله. وقد مضت الدقائق الخمس وكل منهما يحاول أن يخدع الآخر باطمئنانه التام وتفاؤله، حتى إذا ما خرجت الأم الحنون من غرفة ولدها وابتعدت خطوتين، لم تتمالك أن تَكبُت حزنها، وتسيطر على لهيب اليأس المتأجج في صدرها، فخرَّت مغشيا عليها. فأسرع إليها الطبيب والممرضات لإسعافها بهدوء، حتى لا يشعروا ابنها بما جرى لها خوفا من أن يلفظ أنفاسه الأخيرة الفاترة التي كانت تتردد في صدره.

قضى طريف ليلة هادئة، لكن شبح الموت لم يفارق غرفته ومعدته الضعيفة واصلت لفظ الغذاء السائل الذي كان يصب فيها. وبالرغم من ذلك بثت رؤيته أمه في أعصابه قوة عجيبة، وبعثت في نفسه الاطمئنان، بحيث أجاب الطبيب في صباح اليوم التالي حين سأله عن

صحته بقوله رافعا يمناه الهزيلة وكفها مقروضة:

- مثل الحديد... مثل الحديد...

تعجب الطبيب من ذلك الإيمان الجبار، والصبر النادر على الآلام وخرج يقول للممرضّة:

- لم أرَ مريضا فيه من الصبر والايمان والتفاؤل كهذا الشاعر.

بعد يومين عاود النزف مريضنا بشدة، وبشره طبيبان من أطباء المستشفى من أصدقائه بأنه ما زال في آخر الدرجة الثانية من السل، وأن الأمل في شفائه ليس ضعيفا. وحاولا إظهار مرضه له على أهون حال وما كان أشد دهشتهما حين راح يحدهما بهدوء عن قرب موعد شفائه، ويزف إليهما الطمأنينة مجربا إزالة عبء اليأس النفساني الثقيل الذي كانا يرزحان تحته. ولكن كثرة الكلام أعادت إليه النزف، فخرج الطبيبان يترقرق الدمع في أجفانهما.

بعد ساعة تسلم طريف برقية من مصر تنبيه بوصول ابنته هالة إلى هذا العالم (١٩٣٥/١٠/١٩) - يرجو طريف أن تغفر له ابنته الحبيبة ذكره تاريخ ميلادها الحقيقي إذا ظلت عادة مسخ الأعمار مستحكمة في السيدات بعد بضعة عشر عاما - فبكى سرورا بمقدمها، وألما لأنها ولدت كأنها يتيمة، وراح قلبه يهفو بقوة ترحيبا بها وشوقا إلى رؤيتها، وصار يرسم في خياله شكلا جميلا لها؛ من دقة في الأنف، واتساع في العينين، وتورد في الوجنتين، وَوَوَ... حتى كُدّ خياله وتعبت أعصابه

فنام نومة هادئة هنيئة فرح له جميع من في المستشفى، وعندما صحا، وجد نفسه تشتهي الطعام فأكل واحتفظت به المعدة، ووجد أعصابه مرتاحة، وحبه للحياة يزداد منه تمكنا من أجل طفلته البريئة وأخيها الطفل نزار، الذي حرم عطف أبيه وحنانه وهو في منتصف السنة الرابعة من عمره.

منذ ذلك اليوم انقطع النزف إلا قليلا، وعاودت المريض بعض شهيته للطعام، واستطاع خلال بضعة عشر يوما أن يسترد جزءا يسيرا من قواه المنهوكة وقرر السفر إلى مصح الأمراض الصدرية الشهير في حلوان بناء على نصيحة أصدقائه من الأطباء، وإن كان طريف يعتقد في قرارة نفسه أنه غير مصاب بذلك المرض الخبيث بعد أن أكد له أحد أصدقائه البكتريولوجيين استحالة إصابته بالتدرن في صدره بعد أن فحص البصاق مرارا عديدة ووجده خاليا من عُصَبَّة كوخ (ميكروب التدرن).

لم يكد يعلن عزمه على السفر حتى تكرم صديقان له نبيلان ونسيبان كريمان، وقدموا أنفسهم مشيرين على مرافقته والعناية به في سفره الطويل الشاق. ولما كان نسيبه السيد ع. س. أسرعهم جميعا في إنهاء جواز سفره، وأخفهم حملا، رافقه في السابع من تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ في القطار من القدس إلى القاهرة.

وفي محطة القدم احتشد أصدقاء طريف في الصباح الباكر لوداعه، وقد أبى صديقاه النبيلان الأستاذان (ن.ح) و(ر.ح) إلا أن يودعاه. بتقبيله من

فمه، لكي يقر في نفسه أنهما واثقان مثله من خلو صدره من جرثومة كوخ الشديدة العدوى.

أخذ طريف مقعده في القطار، وتسمّر في مكانه خوفا من معاودة النزف وقام صديقه ونسيبه عنه بكل ما يحتاج إليه. وفي محطة اللد سبب له انتقاله من قطار إلى آخر معاودة النزف، بصورة خفيفة، رغم التزامه

الهدوء التام في مشيه، ولم يكد يصل إلى القطار الثاني؛ حتى ألقى بنفسه فوق المقعد لاهثا من التعب والاضطراب، وجمد في مكانه خوفا من اشتداد النزف. وكان كل من يراه بوجهة الباهت وجموده، يحسبه صنما إذا لم يَستَرْع انتباهه الحاد تردد الأنفاس الضئيلة في صدره الواهن.

رعاه الله عز وجل بعنايته طيلة سفره، وكان نَسيبُه نعم الرفيق الساهر على الأمانة المودعة لديه، حتى إذا وصل إلى محطة القاهرة، غادر القطار مُتئدا وسار ساكنا، ولكن أحد سماسرة الفنادق شن عليه حربا خاطفة بلسانه لا هوادة فيها ولا توقف.

- عاوز لوكاندة يا بيه، عدن هاوس يا بيه، دي أحسن لوكاندة يا بيه، سراير نظيفة، خدمه ممتازة، أجره رخيصة يا بيه.

فالتفت إليه طريف وقال له باللهجة المصرية العامية التي يتقنها:

- عندنا بيت في القاهرة.

ولكن جنابه لم يصدق ما سمع، وعاود الكرة بعنف أشد، وكان يرمي أذن المريض المنهوك بمائة كلمة مجلجلة في الدقيقة الواحدة، فاهتاج والتفت إليه موبخا بصوت عال. فأحدث له فوران دمه نزفا شديدا من رئته كاد يقضي عليه، فاتكأ على إحدى المركبات. وراح يمج الدم القاني كأنما فمه الواسع فوهة قربة تتدفق دما لا ماء، سامح الله ذلك السمسار؛ لا شك في أنه يريد أن يعيش، ولكنه مزعج ويترك أثرا مسيئا في نفوس الأجانب الذين يرودون القاهرة سائحين. إن طريفا يتحمله ولو كان في ذلك التحمل هلاكه لأنه عربي مثله، ولكن الأجنبي يعتقد أن أبناء القطر الشقيق مصر جميعا من هذه الطبقة. «حبذا لو ضربت الحكومة العربية على أيدي هؤلاء وأمثالهم بيد من حديد لكي يكفوا عن المسافرين أذاهم، ولكي لا يفسحوا المجال لأعداء العرب للطعن في عاداتنا وأخلاقنا. وأنجع علاج لأدوائنا الاجتماعية -وهي مع الأسف كثيرة- هو فرض التعليم الاجبارى الابتدائي على جميع الناطقين بالضاد على أن تخصص أسبوعيا عدة حصص لدروس الدين والأخلاق». هذا ما حدّث به طريف نفسه، وهو ينفث النجيع.

ثم رأى طريف -وهو في حالة يرثى لها- حماه وحماته ينتظرانه، ليأخذاه معهما إلى البيت فاعتذر وذهب إلى فندق قريب مع نسيبه ليقضي الليل الطويل جالسا في فراشه فتضافر الأرق، والنزف، واليأس على سلب ما تبقى في أعصابه من قوة. ولولا خيال لطفلته -التي لم تكن قد سلخت شهرها الأول بعد- كان يتراقص على شاشة فكره المكدود فيبعث في جسمه شعاعا ضئيلا من الشوق والحياة، لحدث له

في تلـك الليلـة الليـلاء مـا لا تحمـد عقبـاه.

(١٠)

نهـض في الصبـاح متثاقـل الخطـى، مرتخـي المفاصـل ولكنـه مشـبوب الشـوق إلى رؤيـة ابنتـه وأخيهـا، فذهـب إليهـما في سـيارة وكان لقـاء، وكان عنـاق، وسـالت دمـوع. احتضـن ابنتـه الصغـيرة وهـي نائمـة بلهفـة وحنـان، وحـاول أن يحبـس أنفاسـه الحـارة لئـلا تلهـب وجههـا الطـري المـشرق، ولم ينعـم النظـر فيهـا طويـلا خوفـا مـن أن تنفـذ أشـعة الأبـوة المنبعثـة مـن عينيـه خـلال أجفانهـا فتوقظهـا. ولكنهـا انتُزعـت منـه وقايـة لهـا مـن أنفاسـه التـي ظـن أنهـا ملوثـة بالميكروبـات. فحـز الألم في نفسـه، ولم يشـأ البقـاء طويـلا مراعـاة لحـذر انسـبائه مـن تـسرب العـدوى الموهومـة إليهـم، فقـام مـع حميـه ونسـيبه إلى مصـح حلـوان حيـث قابلـه المديـر والأطبـاء بالترحـاب ممزوجـا بعبـارات الاطمئنـان والعطـف، ولا غرابـة في أن يرحـب أبنـاء العروبـة بضيـف عـربي حـل مصحهـم، فقـد أولـوه كل عنايـة، ووضعـوه مـع س. بـك أمـين مديـر بنـك التسـليف الزراعـي في غرفـة واحـدة - لا يسـمح لمـرضى الدرجـة الأولى بالانفـراد في غرفهـم خوفـا مـن أن تسـاعد السـآمة والوهـم والخـوف عـلى زيـادة آلام المريـض وتقصـير عمـره -، وقـد تعمـدوا إكـرام طريـف فانتخبـوا لـه ذلـك الزميـل النبيـل الظريـف الـذي غمـر الشـاعر بلطفـه ومحبتـه، وأصبـح فيـما بعـد صديقـه الحميـم وصفيـه الأول في المصـح.

بعـد يومـين بـشر طريـف بـأن الأشـعة والمختـبر ينفيـان إصابتـه بالـدرن

الرئـوي نفيـا باتّـا، وأن سـبب النـزف داء آخـر يبحـث عنـه. أطبـاء المصـح ومديـره، وعددهـا اثنـا عـشر طبيبـا مختصـا بالأمـراض الصدريـة. وهكـذا قـدر لطريـف أن يبقـى مـع المصـدور بـين أربعـة أشـهر طويلـة، دون أن تتـسرب إلى رئتيـه جرثومـة واحـدة مـن جراثيـم التـدرن -والحمـد للـه-.

مـع أن الأصحـاء مـن الخدمـة والأطبـاء الذيـن يبقـون أربعـة أشـهر متواصلـة في المصـح، قلـما تخلـو رئاتهـم مـن بضـع جراثيـم يكشـفها المجهـر، الأمـر الـذي شـدد عـزام طريـف، وزاد في ثقتـه بالنجـاة مـن المـرض المجهـول الـذي ألم بـه.

أيقـن الشـاعر بعـد يومـين مـن وصولـه المصـح أن زميلـه في الغرفـة أمـير في أخلاقـه وثقافتـه بحيـث أصبـح يناديـه ب. س. أمـير بـدلا مـن أمـين. وتأكـد مـن أن الأشـخاص الذيـن يتحلـون بمثـل أخلاقـه قليـل مـا هـم في هـذا المصـير الـذي طغـت فيـه المـادة عـلى الـروح، فزعزعـت الأوضـاع الاجتماعيـة، وغـيرت مقاييـس الصفـات الانسـانية، فأصبـح التهتـك والفجـور مـما يفاخـر بـه، وصـارت الخمـر والميـسر مـن شـارات مدنيـة اليـوم الخرقـاء.

كان السـيد س. أمـين عليـه رحمـة اللـه حـاضر البديهـة، سريـع النكتـة، متوقـد الـذكاء، حلـو الحديـث، كأن اللـه عـز وجـل أرسـله ليجلـو آلام طريـف النفسـية، وينسـيه اليـأس الـذي تـردى في غياهبـه. فمـن أحاديثـه الطريفـة التـي رواهـا لطريـف مـا يـلي: قـال عليـه رحمـة اللـه:

كنـت يومـا مديـرا لبنـك التسـليف الزراعـي في إحـدى المـدن المصريـة الكـبرى، وعلـو هـذا المنصـب ووفـر الـثروة التـي أغدقهـا اللـه الكريـم عـلي،

وشرف المُحتدّ جعلتني كلها قبلة الأنظار، وهدف التبجيل والاحترام، والوظيفة العالية والثراء يكادان يكونان كل شيء في مصر. حدث يوما أن غابت عني زوجتي وأولادي شهرا وأخذوا معهم الطباخ، مما اضطرني إلى التردد على أكبر مطعم في تلك المدينة، وكان طوله بضعة وعشرين متر وعرضه بضعة عشر متر. وكان صاحب المطعم والكل يختصوني بالترحيب العظيم، والعناية الفائقة لما كنت أرضخ به لهم من هبة مالية (بقشيش). فمرة غيرت بذلتي ونسيت أن أنقل الدراهم منها، وكانوا يحجزون لي مائدة في صدر الردهة. وكان صاحب المطعم يجلس على منضدته أمام الباب لأخذ النقود من رواد مطعمه. فعند دخولي المطعم علمت بنسياني هماني (كيس النقود) فناديت أحد الندل وقلت له:

- نسيت أن أنقل الدراهم من بذلة الأمس فهل يمكن تأجيل الدفع إلى الغد؟

فقال فورا:

- بكل ممنونية يا بيه.

فشكرته ووعدته بضعف الهبة في اليوم التالي. ثم تناولت طعامي وتركت مكاني، حتى إذا بت قريبا من منضدة صاحب المطعم، سمعت صوتا يجلجل من صدر القاعة قائلا:

- سيبُو! معوش فلوس النهاردة

فبوغِـتُّ بهـذه اللباقـة، والتفـت خلفـي فرأيـت عيـون الـرواد جنيهـا شاخصة إليّ. وخيّل إليّ أنهـا تفيض جميعـا بالسخرية والازدراء، فتعثرت في خطـاي وأسرعـت في خروجـي منكس الـرأس، تعلـو وجهـي حمـرة الخجـل. وذهبـت تـوا إلى دائـرة الـبرق فأبرقـت لأسرتي طالبـا عودتهـم بسرعـة. وفي صبـاح اليـوم التـالي دفعـت حسـابي إلى المطعـم، وكان ذلـك اليـوم آخـر عهـدي بـه.

ومـن الحـوادث التـي شـهدها زميـل طريـف الحـادث التـالي الـذي يـدل على عظمـة اللـه قـال: كنـت جالسـا يومـا في مقهـى بشـارع عـماد الديـن، فـإذا شرطـي يمـد يـده إلى طبـق خشـبي كبـير (فـرش) لبائـع متجـول ويخطـف منـه حفنـة ويمـضي لسـبيله. فـما كان مـن البائـع إلا أن وضعـه عنـد رأسـه ولحـق بـه وأمسـك بتلابيبـه صائحـا:

- حـرام عليـك. أنـا رجـل فقـير، أعـول اثنـي عـشر نفسـا، فكيـف تجيـز لنفسـك سـلب معـوز مثـلي؟ رد عـلي مـا خطفتـه منـي أو هـات ثمنـه.

ولكـن الشرطـي لم يفهـم مـما قـال شـيئا لجهلـه العربيـة، بـل كال للبائـع المسـكين اللكـمات حتـى أسـال الـدم مـن فمـه وأنفـه، ثـم طرحـه أرضـا وركلـه بحذائـه. فلـم نطـق -نحـن الجالسـين في المقهـى- صـبرا عـلى مـا شـهدنا مـن الظلـم والاعتـداء، فهببنـا هبـة رجـل واحـد، وهجمنـا عـلى الشرطـي نقتـص منـه، فـترك فريسـته وهـرب، ولكـن اللـه عـز وجـل تـولي عنـا أمـر الاقتصـاص منـه، إذ مـا كاد يبتعـد عنـا قليـلا حتـى دهمـه المـترو (ترمـواي سريـع) فقـضى عليـه في الحـال وتمـزق أشـلاء.

وشهدت بعيني يمناه مبتورة وكفها قابضة على النقل. فقلت:

- إن ربك لبالمرصاد. ثم جمعنا للبائع أضعاف ثمن ما سلب منه وما مُزّق من ثيابه وأسرع وأسرعنا مبتعدين عن مكان الحادث.

ومن نكاته التي حدثت له على مرأى من طريف ومسمع النكات الثلاث التالية:

كان مصابا بالسكر، الداء الذي جر عليه وبال الاصابة بالتدرُّن، وكانت حالته الصحية أول الأمر تتحسن، ووزنه يزداد، وشهيته للطعام تنمو تدريجيا بحيث عاد نصف الدجاجة ظهراً لا يكفيه. فمرة دخل مدير المصح الشاعر الحاضر البديهة الطبيب ع. حسن غرفتهما بعد وصول طعام الغداء مباشرة، فما كان من زميل طريف إلا أن أفرغ طبق الخبز في الصينية وقلبه فوق طبق الدجاجة بحيث أصبح شكل الطبقين كالبرشامة وقال للمدير:

- يا بيه. أآخذ هذه قبل الأكل أم بعده؟ ففهم المدير النكتة حالا، والتفت إلى الخادم قائلا:

- اجلب له دجاجة كاملة ظهر كل يوم.

ودخل المدير مرة وقال له بعد أن طرح على المريضين تحية الصباح:

الحلو مخاصمني (رامز إلى إصابته بالسكر) وهي عبارة من إحدى الأغاني الشائعة.

فأجابه السيد سليمان على الفور بالعامية المصرية:

- أنا بقيت حدق (لكلمة حدق العامية معنيان؛ أحدها بمعنى ذكي، وهو المعنى الذي قصده السيد سليمان والثاني بمعنى حامض). ولا يخفى على القارئ الكريم ما في هذا الجواب من تورية عبقرية.

ومرة أتى الخادم ومعه أخ له جاء به ليعرّفه بطريف وصديقه، فسأله السيد س. الأمير:

- ما هو عملك؟

- صانع أحذية يا بيه:

فقال له فورا:

- سيماهم في وجوههم.

فضحكوا جميعا وسرّوا بهذه النكتة البارعة، وكان شقيق الخادم الذي لذعته أكثرهم سرورا بها.

والحديث عن الزميل الظريف السيد الأمين، وما روى لطريف من النوادر والقصص الواقعية التي رفهت كثيرا عن الشاعر، يتطلب كتابا قائما بنفسه، وحسبنا ما روي عنه من الحوادث والنكات آنفا.

ولم ينفرد السيد س. بالنكتة، بل إن إخواننا المصريين عامة مولعون جدا بها، يديرونها في أعمارهم كما تدار كؤوس الراح، ولا يراعون فيها صغيرا ولا كبيرا. وقلما كبت الواحد منهم نكتة مهما كانت لاذعة،

ومهـما كان الهـدف جليـل الشـأن عظيـم الخطـر في الهيئـة الاجتماعيـة. وهنالـك نـكات خاصـة مشـهورة متداولـة في مـصر يَتَفكّـه بخطـاه وتصطـك ركبتـاه. فعجـب طريـف مـن أمـره واسـتفسر مـن صديقـه الأمـين عـن سـبب هلعـه. فضحـك الصديـق الظريـف ثـم قـال:

«كان في هـذه الغرفـة قبـل بضعـة أشـهر رجـل مـن سُراة الشـام، في ربيـع الشـباب يشـكو داء السـل. وكان قلقـا جـدا عـلى حياتـه وعـلى مسـتقبل أطفالـه، مـما أقـض مضجعـه وجعلـه عصبـي المـزاج جـدا. طلـب يومـا مـن حميـدة مـاء حرارتـه كحـرارة الجسـم ليغسـل بـه وجهـه، فجـاءه بمـاء زادت حرارتـه قليـلا عـن الدرجـة المطلوبـة، فـما كان مـن صاحبنـا إلا أن صبـه عـلى الخـادم فسـلقه مـن رأسـه حتـى أخمـص قدمـه، وتبعـه بـه ليضربـه فأطلـق المسـكين سـاقيه للريـح، وطـار إلى غرفتـه فغـير ثيابـه، وأرسـل زميـلا لـه بمـاء كانـت حرارتـه - لسـوء حظـه - أقـل مـن الدرجـة المطلوبـة بقليـل. ولكنـه خـرج مـن الغرفـة بعـد قليـل متلقتـا وراءه في اندفاعـه إلى غرفتـه ليغـير ثيابـه المبتلـة.

ومـرة جـاءه حميـدة بالغَـداء، فلـم تكـن حـرارة الحسـاء كالمطلـوب، والحـرارة المطلوبـة لـدى صاحبنـا تختلـف اختـلاف بينـا باختـلاف حالاتـه النفسـية واضطرابـه العصبـي. فلـم يكـد يضـع المِلعقـة الأولى في فمـه حتـى غمـز الجـرس، ولسـوء حـظ حميـدة، لم يجـد غـيره لإرسـاله إلى غرفـة المريـض العصبـي فاتـكل عـلى اللـه، وقـرأ آيـة الكـرسي والصمديـة والخـوف حشـو إهابـه، حتـى إذا وصـل الغرفـة، ألقـى التحيـة العسـكرية المعتـادة ووقـف بالبـاب قائـلا:

- نعم يا بيه.

- تعال يا حميد.

ولكن حميدا تردد قليلا بعد أن رأى شرر الغضب يتطاير من غيني المريض. فصاح به المريض صيحة أطارت لُبّه وقال له:

- تقدم حالا.

فخاف المسكين واقترب من المريض الذي حمل الطبق (الصينية) وألبسه رأس الخادم بما فيه من أنواع الأطعمة فتكسرت الصحون على الأرض وسمع لها دوي شديد في المستشفى عقبه خروج حميدة راكضا يغمُر وجهه الشحوب والرعب والطعام.

فركض مدير المستشفى بنفسه ليرى ما حدث، ولكنه ما كاد يدخل غرفة المريض حتى خرج منها راكضا.

ولما جئت إلى المصح يا صاحبي، وقيل لحُمَيْدَة إنك شامي، خاف أن يكون نصيبه منك كنصيبه من المريض العصبي. ولكنه قال لي صباح هذا اليوم: «يظهر أن المريض الجديد ليس شاميا، لأنه لم يضربك ولم يضرب أحدا من الخدم والأطباء حتى الآن».

فضحك طريف كثيرا مما سمع، ونادى حميدة وباسطه وأعطاه بضعة قروش، وأفهمه أن الشاميين ليسوا عصبيين، وحالة مرضية طارئة في فرد واحد يجب ألا يعتمد عليها في الحكم على المجموعة.

نحن العرب عامة نحتاج، في كثير من الأحيان، إلى التمرن. على السيطرة على أعصابنا سيطرة تامة.

(١٢)

كان في الغرفة المجاورة لغرفة طريف مريضان شابان؛ أحدهما ضابط في البحرية المصرية اسمه سعيد، والثاني من سراة القاهرة ومن أبناء البيوتات الحسيبة اسمه شاكر، وكلاهما مصاب بالتدرن الرئوي. فالضابط كان نحيف البنية، فاقد الشهية للطعام، قلما دخل جوفه قوت لم يلفظه. وكان السري ضخم الجسم مديد القامة شديد الأسر، استطاع شبابه وقوة بنيته أن يتغلبا على الداء ويَحْسِماه.

عندما حل الضابط الغرفة، كان زميله السرى على وشك مغادرة المصح، بعد أن أكد له جميع الأطباء أنه نال الشفاء التام، وقبل الموعد المضروب لخروجه بيوم واحد، دخلت الغرفة امرأة كهلة متشحة بوشاح أسود، وعلى وجهها سيماء الكآبة والألم، ولجت الحجرة مترنحة ذات اليمين وذات الشمال، تنوء بالعبء الثقيل الذي نهضت به يداها. كانت تلك المرأة أم الضابط البحري، جاءت تعود ابنها المرة الأولى، وتحمل إليه ألوان الأطعمة والفواكه، وحالما رأته ألقت بحملها على الأرض، وهجمت عليه توسعه ضما وتقبيلا من فيه ووجنتيه، وتصب عليه دمع الأمومة الحار مدرارا. ثم جلست تلهث من نصب الطريق ولهيب العاطفة وثقل العبء، وبعد أن استراحت قليلا، قدمت لابنها ما لذ وطاب من هديتها الغالية، وما هي إلا لقيمات حتى انقبضت

سحنته، وتقزز عن الطعام. فأقبلت عليه أمه المسكينة ترجوه، وتحثه، وتحتال عليه بشتى العبارات لمواصلة الأكل ولكن جهودها ذهبت أدراج الرياح.

وبينما هي تتوسل إليه بمختلف الأساليب المغرية لإثارة شهيته للطعام، طرق أذنيها في الغرفة صوت خَضم (الخضم: الأكل بجميع الأسنان «فقه اللغة») شديد، فالتفتت فرأت السري العملاق شاكرا يُلجلج لقمة (يديرها) في شقه الأَهْرَتِ (الواسع) إثر اللقمة ثم يزدردها بنهم عظيم وعيناه لا تكادان تحولان عن الطعام في الصحون أمامه. فجمدت أم زميله مكانها بعد أن رأت بلعومه يتلقى بشوق ولهفة ما يطحنه فكان له يدوران كشقّي رحى، وظل الذهول مسيطرا عليها بضع دقائق جمعت بعدها أطراف لبها المشرد والتفتت إلى ابنها قائلة:

- لماذا لا تأكل يا بني بشهوة كما يأكل زميلك؟ أنا أتمنى لو تستطيع أكل كمية تعادل نصف ما يأكل، وإذا كان هذا كثيرا عليك فأنا أقنع بأكلك عشره. أنظر يا بني كيف يصول ويجول بين الصحاف (الصحفة: قصعة تشبع الخمسة) كما كان يصول عنترة العبسي بين الأقران في حومة الميدان. ألا تبهر السرعة التي يلتهم بها الطعام؟ حبذا لو حذوت حذوه لتشفي بذلك غليل نفسي لرؤيتك صحيحا معافى كزميلك.

ودارت بعينيها نحو ذلك الزميل الأفوه فوجدته قد غص بالطعام حتى كاد يختنق، وذهبت جهوده في ازدراد اللقمة عبثا، ولولا أن تداركه

الخادم جرعة من الماء لقضى غصصا. ولكن الماء لم يكد يصل إلى معدته حتى تقيّأه وجميع الطعام الذي أكل. ومنذ ذلك الحين ساءت حال شاكر المسكين وفقد اشتهاءه الطعام وبدأ وزنه يخف بالتدريج حتى أصبح ولسان حاله يقول مع المتنبي:

كفى بجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم تَرَني

اشتهرت تلك الأم بالإصابة بالعين، وقيل إنها لو نظرت إلى صخر لصدعته، أو ألقت ببصرها على ينبوع غدق لغار. وكان المرضى الذين دخلوا في دور النقاهة يختفون حين يبصرونها آتية من بعد كأنما انشقت الأرض وابتلعتهم، فسرت عدوى الحيطة والحذر إلى طريف، وإن كان فيما مضى من عمره لا يعتقد بالإشهاء (أشهاه: أصابه بعين)، فجعل للبواب – بالاشتراك مع السيد س. أمين - جُعلا شهريا زهيدا لقاء إعلامهما بقدومها. وكانت طرق الوقاية من إغارتها الثقيلة على المدح لا تعدو أحد أمرين - إما اغلاق باب غرفتهما، لأن السيدة لا بد لها من المرور بها قبل الوصول إلى ابنها، أو الانطراح في الفراش، والأنين بصوت عال يقطع نياط قلبها حزنا واشفاقا.

ويُقسِم خدم المصح جميعا أنها ما رأت مريضا ناقها إلا نُكس. وكان الخدام يدفعون أذى عينيها بما يحملون من التعاويذ، وبقراءة الصمدية وآية الكرسي. وإذا أرغمهم سوء الطالع على مقابلتها، تظاهروا بالألم المُمِض والسعال الشديد على حين تردد صدورهم ما استظهروا من الآيات الكريمة لرد عادية العين. أما الأطباء فقد كانوا يهربون منها

جميعا اتقاء لشر ربما كان فيه القضاء المبرم عليهم.

جاءت يوما ابنها المطيع بعلاج بلدي وصفته لها إحدى العجائز يؤجج الشهوة للطعام، تكرمت بصنعه له من أعشاب ذات مفعول عجيب. وأصرّت الأم الحنون على أن يجرع ابنها العلاج دفعة واحدة، ففعل خوفا من لسان أمه الثرثارة. وإن هي إلا هنيهة حتى عرت المسكين رعدة شديدة فقد بعدها صوابه، وأخذ في صباح اليوم التالي إلى غرفة الأموات حيث أسلم روحه إلى بارئها شاكيا عواقب الجهل المطبق والحنو الأعمى.

أخبرت والدته بوفاته، فجاءت معولة مولولة، ولكنها لم تجد أمامها أحد. فالمرضى أووا إلى غرفهم وأوصدوا أبوابها، والأطباء انصرفوا وهددوا بالاستقالة إن هم أجبروا على تعريض حياتهم للخطر الداهم والمصيبة الماحقة. ولم يبق في وجهها إلا زميله المسكين الذي واساها بأرق العبارات وأعذبها مبديا أسفه الشديد وحزنه العَمَم لما أصاب صديقه فلم تجبه بغير البكاء. ثم انصرفت عنه إلى ثياب ابنها فجمعتها ورمقته بطوربيد نظري أصابه في الصميم وخرجت تلطم خديها وتنشج.

بعد بضعة أيام لحق العملاق السيد شاكر بالرفيق الأعلى.

ولم تقتصر الصابة بالعين في ذلك المصح على تلك السيدة، بل وجد فيه شاب مسلول أقام في المصح مدة طويلة لم تتقدم صحته خلالها ولم تتأخر. ولكنه كان نكبة على كل من حلّ معه، في الغرفة. حل في الدرجة الثالثة الممتازة حيث ينزل في كل غرفة أربعة مرضى، ولم ينقل

إلى حجرتـه ناقِـه إلا شـاهَه، وظـل عزريـل مـدة طويلـة مشـغولا بزمـلاء ذلـك الشـاب محـترم أرواحهـم الواحـد بعـد الآخـر، كأنـه أحـد أعـوان ملـك المـوت جـاء المصـح ليمـده بذخـيرة وافيـة مـن الأرواح. وقـد غـادر طريـف المصـح وصاحبنـا منهمـك في إصابـة المـرضى بعينيـه إصابـات مميتـة.

(١٣)

مـا هـو رأي العلم في الاصابة بالعين يـا ترى؟ وما هو تعليله لها؟

قـضى طريـف شـهرين وهـو عـلى أحسـن حـال، إذ تحسـنت صحتـه خلالهـا كثـيرا، وازداد وزنـه زيـادة لم يكـن ينتظرهـا أشـد الأطبـاء تفـاؤلا، لأن زيـادة الـوزن في المصحـات تكـون بالغرامـات لا بالكيلوغرامـات، كـما حـدث مـع الشـاعر الـذي أضـاف إلى وزنـه ثمانيـة كيلوغرامـات خـلال شـهرين مـن الزمـان فقـط.

اسـتبشر الأطبـاء كثـيرا بذلـك التحسـن - وقـد أصبحـوا كلهـم أصدقـاء حميمـين للمريـض الشـاب - وطمأنـوه بقـرب الخـروج مـن المصـح سـلبيا معـافى، وإن كانـوا في صميـم نفوسـهم متألمـين للخيبـة المـرُة التـي انتابتهـم مـن جـراء خفـاء نـوع المـرض عنهـم. وكـما حـاول طريـف أن تـر يحرجهـم بأسـئلته العلميـة الدقيقـة، أجابـوا بإبهـام، ثـم عمـدوا إلى تغيـير مجـرى الحديـث بمهـارة غريبـة تالوهـا بكـثرة المرانـة.

وكان مديـر المصـح الدكتـور ع. حسـن أقدرهـم عـلى التلاعـب بالألفـاظ، وأخفهـم روحـا، وكان شـاعرا مطبوعـا مـما قربـه إلى قلـب طريـف فنظـم

فيـه قصيـدة جـاء فيهـا:

هذا نبي الطب لم يبعث سـواه المُحْسنُ

كف المسـيح كفّه يشفي بها التَّدرُّنُ

من يأتـه مُحْتضرا يرفض عنه الكفنُ

مِصْرُ اثنتان: كفّة مُضرٌ، وأخرى حَسَـنُ

وقـد نظـم طريـف فيـه سـت قصائـد ومقاطـع حملـه عـلى نظمهـا حـب الحيـاة، والأمـل في إثـارة اهتـمام المديـر الطبيـب بـه، وزيـادة عنايتـه بعـد أن رآه لا يـولي المـرضى اهتمامـا جديـا، مكتفيـا بإجابتهـم عـلى أسـئلتهم، التـي يبـدو فيهـا قلقهـم عـلى حياتهـم جليـا، بقـول مأثـور، أو نكتـة بارعـة لا يـكاد المريـض بضحـك لهـا حتـى يختفـي في المديـر ومـن معـه مـن الأطبـاء. فمـرة اشـتد النـزف عـلى طريـف حتـى يئـس الطبيـب المسـئول مـن إيقافـه، فدعـا المديـر ولمـا جـاء قـال لـه طريـف: إننـي سـأموت. فأجابـه عـلى الفـور:

- سـتموت مـن الضحـك. ثـم انسـل مـن الغرفـة دون أن يسـعف: المنـزوف بـشيء.

ومـرة دخـل غرفـة العيـادة فوجـد المـرضى مزدحمـين حـول الطبيـب.. وأذرعهـم مشـمَّرة لحقـن مـاء الـكاس في أوردتهـم مـا عـدا مريضـا يهوديـا

كان مشيرا ليأخذ الإبرة في عضل عجزُهُ، فلما رآه المدير في الوسط وحوله رفاقه المرضى قال:

والمنهل العذب كثير الزحام.

فقال له أحد المرضى الخبثاء:

- لماذا لم يكشف زميلنا عن ذراعه؟

فقال له دونما تردد:

لكل امرئ من دهره ما تعودا. فضج المكان بالضحك وانتهت عيادة المدير.

ومن أخطاء سعادة المدير الطبيب الشاعر، أنه ظل أربعة أشهر كاملة يجري تحرياته عن مرض طريف فلم يفز بطائل. ففي أول الأمر اعتقد أن معه زحارا (دوسنطاريا) مزمنا، فيخيب التحليل البكتريولوجي اعتقاده، ثم ظن أن طريف مصاب بكيس طفيلي في الرئة اليسرى (Hydatid Cyst)، فأحب التحقق من وجوده بإجراء عملية مؤلمة لطريف خرق بها القصبة الهوائية بمثقب معقم ثم صب في الرئة اليسرى مادة زيتية ذات رائحة كريهة جدا اسمها (Lipiodol). من حسناتها أن أشعة رونتجن لا تخترقها، وأنها إذا وجد في الرئة كيس طفيلي تظهر فوقه مستديرة. وبعد أن أخذت للصدر صورتان بأشعة اكس، ظهر للأطباء أن الكيس غير موجود، وأن المريض مصاب بوشح

رئـوي تـدرّني لا يمكـن شـفاؤه إلا بإيقـاف الرئـة عـن العمـل، وكان ذلـك بإجـراء عمليـة ثانيـة مؤلمـة اقتلـع فيهـا الطبيـب المديـر عصـب الحجـاب الحاجـز الأيـسر مـن جـذوره ثـم قصـه ورمـاه. وقـد أحـسّ طريـف، عنـد اقتلاعـه، أن روحـه استلت مـن جنبـه الأيـسر.

وشرعـت الرئـة اليـسرى تنكمـش تدريجـا بارتفـاع الحجـاب الحاجـز الأيـسر، مـما سـبب ضغـط عليهـا وعـلى الجسـم المبهـم الموجـود فيهـا، ذلـك الـذي ازداد نمـوه أسـبوعا بعـد أسـبوع، بحيـث عـاود طريفـا النـزف بشـكل مرعـب جـدا، وأصبـح خـلال شـهر واحـد أقـرب إلى الأمـوات منـه إلى الأحيـاء؛ فوزنـه نقـص بضعـة عـشر كيلـو غرامـا، ولسـانه الـدَّرِب أصبـح غـير قـادر عـلى الحديـث، ومعدتـه أضربـت عـن قبـول أي نـوع مـن الطعـام أو الـشراب، والنـزف صـار ينتابـه مـرات في اليـوم الواحـد، وأعصابـه تحطمـت مناعتهـا وخاصـة بعـد خـروج صديقـه الحميـم المغفـور لـه السـيد س. أمـين مـن المديـح، وانتقـال طريـف إلى غرفـة أخـرى يحـل بهـا شـاب يونـاني، في أخلاقـه ميوعـة، لم يلبـث طويـلا حتـى غـادر المصـح وحـل مكانـه زميـل آخـر، لـه متـى نـام غطيـط دونـه في الازعـاج صـوت صفـارة الانـذار مصحوبـا بـدوي قنابـل الطائـرات المغـيرة، فتألـب بذلـك عـلى طريـف الأرق مـع النـزف والألم والقلـق والشـوق إلى رؤيـة ولديـه مـما ذهـب بالبقيـة الباقيـة مـن مقدرتـه عـلى إظهـار الشـجاعة والصـبر عـلى الآلام، بحيـث أن نسـيبه ع. س. وصديقيـه السـيدين (ن.ح) و(ش.م) الذيـن جـاءوا إلى حلـوان لعيادتـه، أصيبـوا بصدمـة قويـة لم يتمالكـوا معهـا حبـس دموعهـم وإخفـاء قلقهـم.

واضطـر الأطبـاء لكثرة مـا نـزف طريـف مـن الـدم، إلى إعطائـه كميـة كافيـة

من محلول الملح في الوريد لملء الفراغ الذي أحدثه النزف في الأوعية الدموية.

وأخيرا اكتشف الأطباء بعد عناء طويل أن طريفة مصاب بالسرطان. وقد بشّره أحدهم وكان من أصدقائه، بأنه قد يعيش شهرا آخر. فقال له صاحبنا: إنني مستعد لاستدانة مائة جنيه وإعطائها لكل من يبشرني بأني مصاب بالتدرن بدلا من السرطان لأن أيام الحياة قد تزيد في التدرن عنها في السرطان.

كان طريف قبل مرضه يتمنى الموت مرارا في الشهر الواحد لكثرة ما كان ينتابه من مصائب وهموم وأحزان، ولكنه عندما رأى الموت يدب في جسمه، ورأى شبحه يسدل على طرفه غشاوة رقيقة أخذت تتكاثف رويدا رويدا، وشعر كأنه ضرب بين سمعه وبين العالم الصاخب حجاب رفع عن بصيرته حجاب اليأس والتشاؤم الصفيق، فتمثلت له الحياة بأبهج مظاهرها وأزهى أثوابها فَحُبِّبَتْ إلى قلبه، وأدرك أن الرزايا لا بد من وجودها في حياتنا لتكون الظّلال في لوحة النّعمى التي يغدقها الله عز وجل علينا، وعلم أن المصائب لسعادة الأنام كالملح للطعام لا غنى عنها، ولا تستسيغ النفس الهناء إذا لم يذرَّ الدهر فوقه قليلا من الشقاء. ومنذ ذلك اليوم، وفي موجة الداء التي كانت تتقاذفه وكادت تلقي به على شاطئ الأبدية جثة هامدة، أحب الحياة وما فيها، وتمنى لو طال به الأجل عاما واحدا أو بضعة أشهر ليوفي الحياة حقها من شعره ونثره، وليدعو بني قومه إلى الارتشاف من كأسها بلذة دونها كل لذة، وليفهم مواطنيه أن موجة اليأس التي تكتسح نفوسهم، إذا لم

يهاجموهـا بالعـزم والايمـان بحقهـم في الحيـاة، ضـاع وطنهـم مـن أيديهـم، وتـلاشى كل أمـل لهـم في الحيـاة السـعيدة.

في اللحظـة التـي كانـت تلـك الأفـكار تتـوارد عـلى خاطـر طريـف، كان مديـر المستشـفى وأطبـاؤه يفاوضـون أسـماء المريـض، لأخـذه مـن المصـح خـلال سـاعات لأنـه، في زعمهـم، لم يبـق لـه مـن أجلـه أكـثر مـن يومـين، وهـم لا يرغبـون في أن تزيـد بـه نسـبة عـدد الوفيـات في مصحهـم الخـاص بالأمـراض الصدريـة لا السرطانيـة.

وإن هــي إلا ســاعات رأي مريضنــا بعدهــا نفســه محمــولا عــلى محفّــة المـرضى، ومُودعـا عربـة إسـعاف أقلتـه مـن حلـوان إلى مستشـفى القـصر العينــي بالقاهــرة.

أرسـل الأطبـاء معـه ممرضـة ومعهـا وسـائل الاسـعاف إذا عـاوده النـزف وأوامـر خاصـة يجـب تنفيذهـا إذا مـا تغمـده اللـه برحمتـه في السـيارة وأنقـذه مـن آلامـه.

أوصى السـائق بالسـير عـلى مهـل، وأوصى المريـض بالخلـود إلى السـكون التـام. ولكـن السـيارة لم تكـد تسـير بـه قليـلا، حتـى شـعر برغبـة ملحـة في النظـر إلى المـاء والخـضرة بعـد أن حـرم مـن رؤيتهـا أربعـة أشـهر كاملـة فاتـكل عـلى اللـه وتكامـل عـلى نفسـه حتـى اسـتطاع الجلـوس والاشراف مـن نافـذة سـيارة الإسـعاف عـلى مناظـر الطبيعـة الخلابـة بعـد أن كادت صورهـا تمحـى مـن ذاكرتـه، فشـعر أن الحيـاة عـادت فدبـت إلى أعصابـه دبيـب النمـل، وأن التمتـع بمـرأى الطبيعـة الزاهـرة في آذار بضعـا وعشريـن

دقيقة كافٍ لمحو الآلام النفسية التي أحادثها رقوده في سرير المرض والهلع والألم أربعة أشهر كاملة لا يرى فيها غير جدران الغرفة الأربعة البيضاء، وغير وجوه المرضى التي محا الداء واليأس نضارتها، وجوه الأطباء والمرضين الذين ألفت نفوسهم الأوجاع والموت بحيث كادت عواطف الشفقة والرحمة تتلاشى أماراتها من وجوههم، وأصبحوا أشبه بالتماثيل الصمّاء منهم بالبشر المكونة جسومهم من لحم ودم وعصب.

(١٤)

وأخيرا وصلت سيارة الإسعاف بطريف إلى مستشفى القصر العيني وهو جالس فيها حيا دون أن يشم رائحة عزريل الجبار.

هنالك أمور في مصح حلوان لا يرى طريف بدا من ذكرها، أهمها لديه، حرمانه من رؤية ولديه الطفلين أربعة أشهر طويلة عريضة، لأن قانون المصح يمنع دخول الأطفال خوف عليهم من العدوى التي تنقل إليهم المرض بسرعة، وولعه بولديه ولع عجيب قلما رأى له مثيلا في الآباء، والشعراء عامة تساعدهم سعة الخيال على تضخيم العواطف، بحيث إذا أحبوا أحدا أو أبغضوه ذهبوا إلى أبعد حدود الحب أو البغض، ولا يعترفون بصية القول المأثور:

حب التّناهي غلطْ   خيرُ الأمور الوسَطْ

وإن جاء منظوما.

وكان يُقلق بال صاحبنا التأكد من عدم إدرار القبل بولديه بعد ما

تأكد من خلو صدره من الجراثيم المعدية. فالأطباء الذين استشارهم قبيل مغادرته المصح انقسموا إلى فئتين، فئة لا ترى بأسا بتقبيله إياهما من الجبين، وفئة لم تجز له ذلك. وبين ذينك الرأيين المتناقضين انطفأت آخر شعلة من الأمل كانت تمض في نفسه.

وما استرعى انتباه الشاعر المريض شدة إقبال المرضى على قراءة القرآن الكريم، ولجوؤهم إلى الله عز وجل في أزماتهم الصحية، والايمان بالله تعالى وتسليم مقاليد الأمور إليه، والاعتقاد بالقضاء والقدر، الأمور التي تسكب في نفس المؤمن نوع من الاطمئنان والأمل يقصر عن مجاراته أمهر الأطباء النفسيين.

ولحسن حظ طريف، كان بين المرضى مريض بالسكر يمت بصلة إلى أنسبائه، ويلقب بالكروان بجمال صوته، كان يزور طريفا في غرفته وخاصة عندما تشتد به الأزمات والنزف، فيقرأ له عشرة من آي الذكر الحكيم بصوته الرخيم، وتجويده الفذّ، فيصب الهدوء في أعصاب طريف صبا، ويُشغلها حب الإنصات عن التفكير في النزف وعواقبه الوخيمة، وإن هي إلا هنيهة حتى يتوقف النزف وينجو المنزوف من ويلاته وآلامه.

وما عجب له طريف في المصح العربي المصري وجود رئيسة إيطالية (sister) لأحد أقسامه، مع أن أولياء الأمر رأوا بأم أعينهم الفرق العظيم بين عمل الرئيستين العربيتين الأخريين واخلاصهما في العمل، وبين عمل الرئيسة الأجنبية المهملة التي أعطاها طريف دروس قاسية

في وجـوب احـترام المـرضى العـرب الذيـن عينـت لخدمتهـم، وتوفـير أسـباب الراحـة لهـم، والذيـن لولاهـم لمـا وجـدت لهـا عمـلا تعيـش منـه.

كانـت حضرتهـا تخـص بعنايتهـا شـابا يونانيـا مريضـا وسـيم الوجـه قـد أفردتـه بغرفـة ممتـازة كانـت تقـضي فيهـا معـه جـل أوقاتهـا ضاربـة صفحـا عـن حاجـة المـرضى الآخريـن إليهـا. كان اليونـاني الحاكـم المطلـق في القسـم الـذي حـل فيـه، فالمـرضى كانـوا يتملقونـه لأنـه وسـيلتهم الوحيـدة إلى الحصـول عـلى مآربهـم، ولأنـه أجنبـي وللأجانـب في مـصر امتيـازات – أصبحـت ملغـاة الآن والحمـد للـه - تقـضّ المضاجـع وتقصـم الظهـور، مـع أن أكـثر بنـي قومـه اليونانيـين في مـصر هـم إمـا نُـدُلٌ في الفنـادق، أو أصحـاب حانـات يسـلبون بخمورهـا ألبـاب العـرب المصريـين، ويهدمـون بيوتهـم، ويبتـزون أموالهـم ليشـيدوا لأنفسـهم القصـور ويكتنـزوا الأمـوال. ولعـل الاسـتقلال الـذي ظهـرت بـوادره في مـصر يقـال فيهـا سنسـتقبل مـن الأيـام أظفـار النفـوذ الأجنبـي، وتترعـرع في ظلالـه الكرامـة العربيـة والعـزة القوميـة. أمـا الخـدم فقـد كانـوا يطـيرون لتلبيـة رغبـات اليونـاني أول مـا يغمـز زر الجـرس الكهربـائي صامـين آذانهـم عـن رنـين الأجـرام الأخـرى، لأن أقـل إهـمال منهـم في خدمـة سـعادة الخواجـة معنـاه الرفـت المحتـم وانقطـاع مـورد رزق يقتنصونـه مـن بـين براثـن الـردى الـذي يُطـوّح بمرضاهـم واحـدا إثـر آخـر، ومعنـاه حرمانهـم وأسرهـم القمـة المغموسـة بالدمـوع والعويـل والآلام.

ففـي أحـد الأيـام، بينـما كانـت السسـتر الايطاليـة عنـد خليلهـا اليونـاني يقضيـان الوقـت في المغازلـة والمداعبـة؛ رن جرسـا طريـف واليونـاني في آن

واحـد، ولم يكـن هنالـك غـير حميـدة فطـار إلى حيـث الخواجـة، وهنـاك قـضى لليونـاني بعـض حاجاتـه وجـرس طريـف يـرن، والرئيسـة وصاحبهـا يأمـران الخـادم بإهـمال كل شيء والانـصراف إلى تلبيـة رغباتهـما، ولمـا واصـل الجـرس رنينـه، بـادر أحـد المـرضى المجاوريـن لغرفـة اليونـاني إلى غرفـة طريـف تلافيـا لمـا قـد يخلـق غضبـه مـن مشـاكل بينـه وبـين السسـتر. فرجـاه طريـف التلطـف بدعوتهـا إليـه، وعندمـا حـضرت أعطاهـا درسـا قاسـيا جـدا في ضرورة القيـام بالواجـب، وحسـن السـيرة في محيـط عـربي يقـدس الـشرف والأخـلاق، وأقسـم مُنـذرا أنهـا إذا مـا عـادت سـيرتها الأولى مـن الإهـمال والعبـث بـشرف المـكان الـذي يقـف معظـم ضيوفـه بـين يـدي رحمـة اللـه، ليسـعين إلى إخراجهـا مـن المصـح ومـن مـصر قاطبـة، فبوغتـت بمـا سـمعت، ورأت أن طريفـا الشـاعر الوديـع الحليـم صعـب المـراس إذا ثـار، فسـكتت عـلى مضـض ثـم اعتـذرت بلطـف وخرجـت مـن الغرفـة تجـر أذيـال الإهانـة التـي نسـيت لذعهـا في مـصر الكريمـة المضيافـة. ولم تكـد تخـرج حتـى هـرع المـرضى إلى طريـف يشـكرونه عـلى كبـح جـماح الأجنبيـة المسـتبدة وفي طليعتهـم كان حميـدة الظريـف الـذي قـال لطريـف، بعـد أن شـهده يصـب جـام غضبـه عـلى الإيطاليـة:

- الآن تأكـدت مـن أنـك شـامي. فهـدأ ثائـر طريـف وضـج ومـن حولـه بالضحـك.

بعـد ذلـك الحـادث، راحـت السسـتر الايطاليـة تخطـب ود طريـف بجميـع الوسـائل وتنـازل صاحبهـا اليونـاني عـن عنجهيتـه وعـرش جبروتـه، وأقبـل عـلى غرفـة طريـف متهاديـا بقـده الممشـوق، وبيجامتـه الحريريـة، وعطـر

أزهـار الحـب (Fleurs d›amour) يعبـق بـه رأسـه وكفـاه، وبيـده باقـة مـن الـورود الأرجـة القرمزيـة أهداهـا إلى صاحبنـا تـوددا إليـه وابتغـاء مرضاتـه، ولم يكـد السـيد س. أمـين يغـادر المصـح ويبكيـه قلـب طريـف بأدمـع حمـر، حتـى جـاءت السـستر وخليلهـا يلحـان عـلى صاحبنـا بالانتقـال إلى غرفـة اليونـاني الواسـعة ذات الشرفـات والنوافـذ المطلـة عـلى حديقـة المصـح الغنّـاء. فقبـل بعـد لأي مـا عرضـاه عليـه، وهنـاك في تلـك الغرفـة شـهد دنيـا جديـدة لم يكـن لـه بمثلهـا عهـد مـن قبـل، وكشـف النقـاب عـن الأسـباب التـي أدت إلى نسـبة الفـوضى الأخلاقيـة إلى مـصر العربيـة التـي كانـت ضحيـة لتهتـك الأجانـب ومجونهـم.

كان حـضرة الخواجـة اليونـاني خاطبـا لابـل مخطوبـا إلى فتـاة يونانيـة فتانـة، كان يوصلهـا إلى خطيبهـا كل أسـبوع خليـلٌ لهـا ينتظرهـا في الحديقـة اليابانيـة في حلـوان ويحييهـا، ذاهبـة عنـه إلى خطيهـا وآيبـة إليـه، بقبلـة حـارة وضمـة طويلـة، ولـو لم يشـهد تلـك الخيانـة العجيبـة عـدد مـن المـرضى والخـدم والعُـوّاد، لمـا اسـتطاع طريـف تصديـق مـا رُوي لـه. ولم يقتـصر الأمـر عـلى ذلـك، بـل كانـت تـزور صاحبنـا اليونـاني خليلتـان آيـة في الجـمال والرشـاقة؛ إحداهـما إيطاليـة زوجهـا شـاب ثـرى - ومعظـم الأجانـب في مـصر يـثرون - يجـاور بيتـه بيـت اليونـاني المريـض، والثانيـة مخطوبـة لأحـد أصدقـاء الحميميـين فمرحـى للصداقـة والوفـاء. وكانـت الأولى منهـما تغـدق عليـه الهدايـا الثمينـة بغـير حسـاب لأن زوجهـا وجـار خليلهـا كان يغرقهـا بعطفـه وجـوده.

وفي أحد الأيام علمت السستر الايطالية بقدوم الحليلة الايطالية لزيارته، فسبقتهما إليه وجلست على سريره وشرعت في المغازلة المكشوفة وهو بين استجابة لنوازعها النفسية، لحاجته إلى عنايتها وخدمتها، وبين خوف مرعوب من خليلته التي سبقتها إليه رائحتها الذكية فعطرت المصح كله. ولم تكد تقتحم الغرفة مثقلة اليدين بالهدايا النفيسة وترى السستر على سرير خليلها تغازله وتمازحه، حتى أجّ خداها المورّدان غضبا، وقدحت عيناها الدعجاوان شررا، ووقفت مكانها جامدة كأنها الصنم لا تتقدم ولا تتأخر. أما خليلها فقد امتقع لونه هلعا، وألقى على السستر نظرة شزراء لعلها تتنحّى وتخلي للزائرة المكان، ولكنها تغابت وعاودت مغازلتها الوقحة. فما كان من اليوناني إذ ذاك إلا أن طردها شر طردة فخرجت من الغرفة، وفي عينيها عبرات لم تستطع حبسها، وعلى شفتيها كلمات من التهديد والوعيد نَمَّت عنها اللهجة المعربدة الثائرة، وإن لم تتبين حروفها الآذان المصغية.

بعد يومين رحل اليوناني إلى بلاده مستشفيا، إذ جعلت السستر الايطالية المحنقة المصح في عينيه جحيما بعد أن كان الآمر الناهي فيه.

يجب ألا نلوم مصر الشقيقة وعرين العروبة على ما يرى فيها من المبكيات، في عهد كان سيف الامتيازات الأجنبية مسلطا فوق عنقها، ومعظم الأجانب فيها يلبسون وجوها صفيقة من الوقاحة لا يمكن أن تنفذ خلالها أشعة الحياء.

جاء يوما خمّار يوناني ليعود زميل طريف في الغرفة قبل سفره،

ووجهه يطفح غضبا. وعندما علم أن الشاعر شامي أفرغ ما في جعبته من شتائم على المصريين وحكومتهم لأنهم لا يميزون الأجانب في المُكوس الجمركية عن المصريين، ومتى جاز أيها المنصفون مساواة أبناء العبيد بأبناء السادة؟! فما كان من طريف إلا أن قال له:

- إن المصريين يجب أن تقطع رؤوسهم جميعا، وأن تساب أموالهم، وتهدر دماؤهم، وتداس كرامتهم، وتباع بناتهم لليونانيين كما كانت الإماء تباع في أسواق النخاسة في القرون الوسطى، وتحوّل دور حكومتهم وبرلمانها وقصور عظمائهم إلى حانات يديرها اليونانيون فيحسنون إدارتها، لأن المصريين شعب لا يعترف بالجميل، ولا يرى فضل بني قومك عليه من حيث فشوُّ الدعارة، ونشر المجون، والاستهتار بالأعراض وارتشاف كؤوس الراح المُعتقة التي تقدمونها لأفراده دون أن تتقاضوهم سوى سلب عقولهم وجيوبهم ثمنا، نعم إن المصريين الذين نُفدِّيهم، نحن أشقاءهم أبناء الأقطار العربية المجاور بأرواحنا، هم مجرمون لأنهم سمحوا لأمثالكم من شذاذ الآفاق بالإقامة بين ظهرانيهم، والتحكم في تجارتهم وصناعتهم.

تعب صادر ظريف من اندفاعه في التحدث إلى اليوناني الذي سكت هو ورفيقه كأن على رأسهما الطير، فارتاح هنيهة وواصل بعدها حديثه قائلا:

«ألا تعرف يا خواجة أن فلسطين ومصر قطر واحد، لسكانهما دم واحد، ولغة واحدة، وعادات واحدة. فنحن والحمد لله لسنا خواجات،

وحاذر أن تعود إلى مثل هذا الكلام مرة أخرى، ويجب عليك وعلى بني قومك جميعا أن تسبحوا بحمد المصريين الكرام الذين آووكم في بلادهم الجميلة المضيافة، وجعلوا منكم يا نُدل (جرسونات) المطاعم والحانات، رجالا أثرياء يسكنون القصور، ويملكون الأطيان والدور، ويبيعون الخمور، وينشرون الفجور، ثم لا يحاسبون على ذلك فتيلا. فإن كنتم تعرفون الله، معاشر الأجانب، فاتقوه وخففوا من لوائكم، لأن العرب قد تيقظوا ولن يُبيحوا لأحد بعد اليوم أن يعيث في بلادهم».

ولحسن حظ رئة طريف أن أنقذتها خطيبة اليوناني بمجيئها فانسحب العائد من الميدان يجر أذيال الاهانة، وخرج الشابان إلى الشرفة واستسلم طريف إلى سكون تام كان في حاجة إليه، وبسمة الظفر مرتسمة على وجهه الشاحب.

بعد سفر اليوناني حل صاحب الغطيط المزعج بالغرفة ولولا أن الشاعر هدد الأطباء بالهجاء اللاذع إذا لم يخرجوه لبقي في الغرفة لمساعدة الخواجة عزريل في القضاء المبرم على طريف.

(١٥)

أما وقد دافع طريف عن إخوانه المصريين فأحسن الدفاع، فإنه لا يرى بدا من تسجيل بضع ملاحظات أملتها عليه الغيرة على بني قومه العرب القاطنين مصر عرين العروبة يقرها في آذانهم برفق لعلها تجد بيهم سميعا:

حبـذا لـو حذفـت الألقـاب في مـصر، فـكل لابـس بذلـة يـكاد يكـون سـعادة البيـه، بحيـث يختلـط صاحـب اللقـب المزيـف بالأصيـل، والألقـاب الحكوميـة إذا كـبر عـدد حامليهـا قلـت قيمتهـا. والغريـب في الأمـر أن هـذه الألقـاب متمكنـة مـن النـاس إلى درجـة رأى طريـف فيهـا مريضـا مثقفـا محترمـا ينـادي أخـاه الأصغـر بـِ (فـلان بـك) تـم مـاذا اسـتفاد كل مـن حسـين هيـكل، وطـه حسـين، وأحمـد أمـين مـن صاحـب المعـالي محمـد حسـين هيـكل باشـا وصاحبـي العـزة طـه حسـين بـك وأحمـد أمـين بـك. نحـن الأدبـاء لا نحـب أن نتعـرف إلى أصحـاب المعـالي وأصحـاب العـزة. إن قيمـة هـؤلاء الأدبـاء الثلاثـة وكثـير غيرهـم هـي في إنتاجهـم الأدبي وأدبهـم الخالـد، لا في مـا حملـوا مـن ألقـاب؛ فأحمـد أمـين مثـلا محبـب إلى القلـب أكـثر مـن صاحـب العـزة أحمـد أمـين بـك، وقـس عـلى هـذا الأديـب الفـذ غـيره مـن أدبـاء مـصر العظـام أصحـاب الألقـاب. إن اسـم أحمـد أمـين لـه قيمـة معنويـة كـبرى لا يشـاركه فيهـا إلا القليـل مـن نوابـغ الأدبـاء، أمـا لقـب بـك فيشـاركه فيـه كثـيرون ممـن لا نـرضى بهـم نحـن ولا التاريـخ خَـولا لديـه. لقـد ألغيـت الألقـاب في الأقطـار العربيـة كافـة فـما بـال زعيمـة هـذه الأقطـار لا تـزال محتفظـة بهـا؟

ثـم مـا هـذا التطـرف في الانفـاق عـلى الثيـاب، التـي إمـا أن تكـون أسـمالا أو تكـون أنيقـة إلى حـد لم يسـتطع معـه أحـد أطبـاء المصـح التفريـق بـين زميـل لـه جديـد وبـين خـادم (تمرجـي) جديـد، إذ أدخلـه غرفتـه وأكرمـه كل الاكـرام ولمـا قـال لـه:

- ما اسـمك الكريم يا دكتور؟

أجابه:

- أنا التمرجي حسين وسأباشر العمل هنا يا سيدي البيه ابتداء من صباح الغد إن شاء الله..

نبهت الطبيب أول الأمر، ثم ألقى على (الدكتور) حسين درسا قاسيا في الاقتصاد، وذكره بالمثل القائل «مدّ رجليك على قدر بساطك».

ومما حز في نفس طريف ضآلة المرتبات الشهرية التي تعطيها الحكومة للتمرجية بحيث يضطرون إلى مد أيديهم إلى المال الحرام ليستطيعوا إعالة أسرهم الكبيرة، وهذا رغم أن تمرجية حلوان يأخذون جنيهين شهريا زيادة عن تمرجية المستشفيات الأخرى، وذلك تعويضا لهم عن الخطر الذي قد يحيق بهم من جراء تسرب ميكروب السل إلى صدورهم فتبلغ رواتبهم خمسة جنيهات أو ستة شهريا.

ووسائلهم في الاختلاس والسرقة متنوعة، فهم لا يشترون للمرضى شيئا من الخارج إذا لم ينقدوهم مالا مقدما، وكان رؤساؤهم (الباشتمورجية) يفرضون الضرائب على معظم المرضى الذين لا جُرأة لهم أو لا سند لهم، وكانوا يجبرون معظمهم على دفع ثمن ابر الكلس (الأمبولات) التي يكونون قد دفعوا ثمنها للمصح، ويا ويل من يحاول منهم رفع عقيرته بالشكوى أو التذمر أو تقطيب الوجه. وقد بلغت القحة بأحد التمرجية أن دخل في غلس الدجى غرفة مريض يُحتضر، غير حاسب حسابا لرفيقيه اللذين طار السبات من عيونهما هلعا ورهبة، ورفع يد المُحتضر اليُسرى وعيناه تحدقان في اللص، ولم يتمكن من الصراخ

وتأليب المرضى والطبيب المناوب عليه، لأن الكلام احتبس في لسانه، ورأى بأم عينيه كيف سلب بُنصره خاتم الزواج، وكيف رفع رأسه بخشونة لأخذ ساعته من تحت الوسادة، وعندما مد اللص يده إلى سترة المسكين وأخرج منها حافظة النقود، وجردها مما فيها من المال القليل الذي قد يكون كل ما كان يملك ذلك البائس من نقود لتنفق على جنازته، أو ليشتري بها أولاده الجياع خبزا، عندما رآه المُحتضر جحظت عيناه غيظا فرفع يديه في وجه المجرم الأثيم وحاول النهوض من سريره، ولكن الله استرد وديعته إذ ذاك فهوى المسكين على سريره جثة هامدة بعينين جاحظتين ويدين ممدودتين تشكوان إلى البارئ عز وجل ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

أما المريضان الآخران فقد دثرا وجهيهما ألما وحنقا واشمئزازا بعد أن شهدا الفصل الأخير من رواية الحياة الذي قد يُمثّلانه على يد التمرجي نفسه.

في صباح اليوم التالي، ذهب المريضان إلى طريف وقصَّا عليه ما جرى بعد أن أخذا عليه عهدا بأن يكتم الأمر لئلا ينالا على أيدي زبانية المصح - حاشا حميدة - أقسى أنواع العذاب، فوعدهما الشاعر بالسكوت وطمأنهما بأنه قد يكون الضحية التالية دونهما فإذا جرب المجرمون فيه طريقتهم الشائنة فما عليهما إلا مغادرة المصح هربا من أعوان إبليس.

بعد بضعة أيام، رأى المريضان عيون التمرجية حُمرا عليهما، فما كان منهما إلا أن حزما ثيابهما وركنا إلى الفرار من المصح خوفا من النهاية الوخيمة، وأرض الله واسعة.

ومن المضحك المبكي أن أحد المرضى حين كان يُراضِخ (يُعطى كارها) الموظف المسؤول عن التحليل بضعة قروش، كانت النتيجة سلبية وكان المريض سليما من عشيات كوخ - ميكروب السل-، أما إذا تغاضى عن الدفع (بالتي هي أحسن) فالجراثيم موجودة بكثرة، والأمل في الشفاء ضئيل ولا حول ولا...

يحز في نفس صاحب المذكرات تسجيل هذه الأمور المزعجة المسؤول عنها عدد قليل جدا من أبناء مصر الشقيقة، الذين يرى نفسه مضطرا إلى انتحال الأعذار لهم؛ فضآلة الراتب، والأمية، والرزوح تحت عبء التوجيه الأجنبي، تؤدي إلى صدور تلك الأعمال المشينة من العدد القليل الذي يصبح بفضل الدعاية المغرضة المشوهة للحقائق عددا كبيرا يشمل الشعب العربي المصري بأسره.

فأما وقد نالت مصر الاستقلال وزال كابوس الامتيازات الأجنبية فإن طريفا لم يجد بدا من إيراد هذه الحقائق في مذكراته لكي تتلافى الأمة العربية المصرية المستقلة هذه الأخطاء، فتُخرس بذلك ألسنة الحساد والشامتين، ولا عذر لها الآن إذا لم تضرب بيد من حديد على كل من حدثه نفسه بارتكاب أمثال تلك المآثم.

يكتب طريف هذه العبارات بعد أن تحققت الآمال في تشكيل الجامعة العربية التي جعلتنا نحس قلبيا أن لنا الحق في مصر والعراق وسوريا كما لأبناء تلك الأقطار العربية تماما، وغيرة الشاعر على بني قومه. في مصر هي التي دفعته إلى التنبيه إلى تلك الأخطاء حما في القضاء على مسبباتها واستئصالها من الجذور.

فما مصر إلا كعبةُ العربُ في الحِجى

وما مصرُ إلا القلبُ تحيا به العُرْبُ

(١٦)

بعد ثلاثة أشهر من وصول طريف إلى حلوان، بوغت بانقطاع جُعله (راتبه) الشهري الذي قضى في انتظاره أسابيع، وكان مصدر رزق الأسرة الوحيد بعد أن بدد الأموال الطائلة التي ورثها عن والده للاحتفاظ بمكانته المرموقة في الهيئة الاجتماعية، واشباعا لأطباع بعض من التَف حوله من الطفيليات الانسانية فوقع في حيرة أي حيرة أيفكر في نفقات المستشفى الطائلة أم يفكر في أمر سراج حياته المهدد بالإنطفاء بين عشية وضحاها، أم يفكر في نفقات أسرته، أم في أشعاره المبعثرة هنا وهناك التي قضى في نظمها شطرا كبيرا من عمره، أم في مسودات كتبه النثرية المهددة بالضياع كشعره.

وبينما كان على تلك الحال من القلق والاضطراب النفسي أُنبئ بإصابة ابنه نزار بحمى شديدة مرعبة لم يعرف كنهها لخلو الجيب من

النقـود اللازمـة للطبيـب والـدواء، فـزادت آلامـه ضغثـا عـلى إبّالـة، وشـعر كأنـه أصيـب بمثـل الي التـي أصيـب بهـا ابنُـه، ووسـوس لـه الشـيطان أن المـوت أصبح مـن ابنـه قـاب قوسين أو أدنى، وأراه خيالـه الخصيـب صـور بشـعة مخيفـة لا يجـرؤ قلمـه عـلى سردهـا، فَجُـنَّ جُنونُـهُ وشـعر أن قلبـه الجريـح يوشـك أن يخـر صريعـا في تلـك المعركـة النفسـية وحالـت رجولتـه دون إرسـال العـبرات فنابـت عنهـا الرئـة بـزف النجيـع القـاني غزيـرا فبلـغ الكـروان النبـأ فجـاء مسرعـا إليـه، ولم يكـد يرتـل لـه بعضـا مـن آي الذكـر الحكيـم بصوتـه الرخيـم حتـى كفكفـت الرئـة دموعهـا، وأسلسـت الأعصـاب الثائـرة قيادهــا، وبعــد هنيهــة، راود السُّـبات أجفــان الشــاعر بأناملــه الرقيقـة فاستسـلمت لـه، وأخلـدت الأعصـاب المهتاجـة إلى السـكون التـام.

لم يكـد طريـف ينـام قليـلا حتـى شـهر بيـد ناعمـة توقظـه برفـق وحنـان فتـح عينيـه فلـم يجـد أحـدا ولكنـه سـمع صـوت خـارج الغرفـة يسـأل عنـه. وحـين تبينـه رأى أنـه سـاعي البريـد يحمـل إليـه رسـالة مسـجلة وحـين فضهـا رأى فيهـا ثلاثـة جنيهـات مصريـة، بعـث بهـا إليـه صديقـه الحميـم الأسـتاذ ر. ح. لـدى سـماعه بانقطـاع مرتبـه الشـهري. وقـد كانـت تلـك الجنيهـات كل مـا توفـر لـدى ذلـك الصديـق مـن مـال. أمـا قيمتهـا لـدى طريـف بمثابـة آلاف الجنيهـات لحاجتـه القصـوى إليهـا مـن أجـل انقـاذ ابنـه. ولم تغـرب شـمس ذلـك اليـوم حتـى كان نـزار يتجـرع عـلاج الطبيـب وترفـض الحمـى عنـه بارفضـاض عَرَقِـه واللـه أرحـم الراحمـين.

بعـد أسـبوع حمـل إليـه البريـد كتابـين أحدهـما مـن محـام يبشره فيـه بظهـور قطعـة أرض في حيفـا موروثـة مـن أبيـه، إذا وافـق عـلى بيعهـا نالـه

منها ألف ونيف من الجنيهات. فاعتقد أن الله عز وجل قد كشف الستر عن قضية الأرض تلك ليمتحن وطنية الشاعر لأن المتقدمين لشرائها جميعا من اليهود، ورأى أن حاجته إلى المال مهما كانت عظيمة لإنقاذ حياته، فإن حاجته إلى الإبقاء على سمعته الوطنية أعظم. فالحياة فانية على كل حال ولكن الذكر خالد. فما كان من طريف بعد ذلك إلا أن كتب إلى المحامي قائلا: إن الموت مع الشرف خير من الحياة مع عار الخيانة الوطنية، ثم طرح نفسه على سريره بجيب نظيف وذكر نظيف. وسلَّم أمره إلى الرؤوف الرحيم.

أما الكتاب الثاني فمن مدير المعارف العام رئيس الدائرة التي يشتغل طريف فيها، يقول فيه إن منصبه التدريسي سيُحَتفظُ له به إلى أن يعود بعد الشفاء التام القريب..

وسبب إرسال الكتاب الثاني هو وصول تقرير طبي إلى دائرة المعارف العامة من الطبيب المقدسي، يذكر فيه أن طريفا في أيامه الأخيرة، وأن لا أمل في شفائه. فأحبت إدارة المعارف أن تقوي معنويات الشاعر ليشرب كأس الردى بنفس هادئة، ويد غير راعشة، فأخبرته بأنها تحتفظ له بمنصبه، مع أن القانون لا يجيز لها ذلك ولكنها فوَّضت الأمر إلى عزريل ليحل بنفسه ذلك المشكل. ولولا خطأ الطبيب في تشخيص المرض ذلك التشخيص المزعج الذي أقام طريفة وأقعده، لأضاع مورد رزقه الوحيد.

{وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}.

(١٧)

وصل طريف إلى مستشفى القصر العيني رجلا آخر كله آمال وتشبث بأهداب الحياة، مُخلّفا في حلوان اليأس، والجزع من الموت، وجراثيم السل، وغارات المرضين، ولم يكد يقتحم باب القصر الخارجي محمولا على محفّة المرضى حتى لقيه طبيب شاب، سمح المحيا، استطاع بلطفه أن يحمل طريفا على الكلام عشرين دقيقة كاملة سرد له فيها قصة مرضه، دون أن يشعر بتعب من الكلام، مع أنه قضى المدة الأخيرة في حلوان غير قادر على النطق بأكثر من جملة واحدة موجزة في الساعة الطويلة.

ثم أخذ طريف إلى قاعة كبيرة من قاعات الأمراض الباطنية في القصر هُيّء له في إحدى زواياها سرير نظيف، شعر لدُن انطراحه عليه بدبيب الطمأنينة يتسرب إليه منه. ولم ينتظر طويلا حتى جاءه طبيب شاب معتدل القامة، بدين، كبير الرأس، تشع عيناه ذكاء ونفاذا إلى بواطن الأمور كأنهما أشعة إكس. ذلكم هو الدكتور ر. ق. أحد أساتذة الأمراض الباطنية بكلية الطب.

أحبَّه مريضنا من النظرة الأولى، ورأى وجوده في المستشفى باعثا على الثقة والاطمئنان، فتمازجت الروحان والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، ومنذ تلك اللحظة سُجّلت في تاريخ الصداقة صفحة جديدة مجيدة يعتز بها كاتباها.

غص الدكتور... طريفا، وطلب إليه أن يكتب بالإنجليزية تاريخ مرضه،

ووعده بالتأكد من نوع المرض في صباح اليوم التالي، الموعد المخصص لزيارة أستاذ الأمراض الباطنية الأكبر البروفسور د. أحد أطباء جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول في مرضه الأخير.

في صباح اليوم التالي، أقبل البروفسور د. بعد أن قرأ تاريخ مرض طريف، مصحوبا بالدكتور ر. فسلم على المريض سلاما حارا كأن له به معرفة من قبل ثم قال له:

- صباح الخير يا دكتور.

- لستُ دكتورا يا دكتور.

- ألم تكتب التقرير الطبي عن مرضك؟

- بلى؟

- لا يمكن أن يكتبه بمثل تلك الدقة إلا طبيب عظيم متمكن من اللغة الانجليزية.

- لم تخطئ الظن كثيرا، فقد أنهيت السنتين الأوليَيْن من الدائرة الطبية في جامعة بيروت الأميركية، ثم حملني حب الشعر، وإغراء المغفور له الشاعر شوقي، ومقتي رؤية آلام المرضى، على ترك كلية الطب إلى كلية الآداب والعلوم.

- وبم اشتغلت بعد ذلك؟

- بالتدريس.

- فهمت الآن يا أستاذ سر ذلك الإيجاز وتلك الدقة.

- شكرا جزيلا.

- أود أن أبشرك بأنك لست مصابا بالسرطان.

- لست مصابا بالسرطان؟... صحيح..؟ هل هذا ممكن؟

- نعم صحيح وممكن، لأن المصاب بالسرطان يجب أن ينقص وزن جسمه، وأنت ازداد وزنك ازديادا عجيبا في الأشهر التي انقطع فيها النزف عنك، ومسألة نقص الوزن في السرطان لا يجهلها أي طالب من طلاب السنة الثانية الطبية، وأبشرك أيضا بأن لك رئتين عجيبتين في قوتهما بحيث لم تعلق بهما جرثومة واحدة من جراثيم السل رغم وجودك أربعة أشهر كاملة في مصح يضم المئات من المصدورين.

فكاد طريف يقفز من سريره فرحا، وقال للطبيب العظيم وعيناه غائمتان بعبرات الغبطة والحنو الأبوي:

- إذا لي أمل في الشفاء والبقاء للعناية بطفليْ الحبيبين. فهرت الطبيب الشيخ الشفقة والعطف وقال:

- أرجح أنك مصاب بكيس طُفيلي في الرئة اليسرى (Hydatid Cyst) رغم أن أطباء حلوان ينفون ذلك، لأن الطريقة التي اتبعوها في البحث عنه عقيمة.

- وهل أُجريت لي العمليتان الجراحيتان خطأ؟

- لا تهتمّ بما مضى.

- وهل ستجرون لي عملية أخرى هنا للتحقّق من وجود الكيس؟

- اطمئن بالا. كل ما سنعمله له هو حقن جلدك ببضع نقاط من سائل إذا تورمت منه ذراعك قليلا واضطررت إلى حكها، دل على إصابتك بالكيس الطُفيلي، وسنُسل قليلا من دمك إلى المختبر أيضا زيادة في التثبت من وجود الكيس.

ثم ذهب الطبيبان بعد أن حقنا جلد طريف وأخذا من وريده بضعة سنتيمترات مكعبة من الدم، تاركين قلبه يَطفُر في الضلوع فرحا، وعزيمته يشددها الأمل، وحب الحياة يكتب على أسارير وجهه الشاحب آيات مبينة من الحبور قرأها بسرعة كل من رآه طيلة ذلك اليوم السعيد.

لم ينم تلك الليلة، اغتباطا بما سمع، وانتظار نتيجة فحص الدم، رغم أن مكان الإبرة في ذراعه بدأ يتورم منذ المساء واستحكه بإلحاح وفي ذلك ما يرجح إصابته بالكيس الطُفيلي، ولكنه آثر تلقي البشري كاملة من الطبيب صباح اليوم التالي. وفي التاسعة صباحا زفت إلى المريض الساهد بشرى وجود الكيس الطفيلي في رئته، وإمكان شق الرئة بعملية جراحية وسلخه منها.

يعجز قلم الشاعر عن وصف فرحه آنذاك، لأن السرور العميم قلما تسرب إلى نفسه في ماضي حياته ليكون متدربا على وصفه كما تدرب

على وصف الآلام فأبدع في شرحها شعرا ونثرا، وربما يعود ذلك إلى أن وحي الألم يتغلغل في النفس فيه. فيُهزها هزّا أعنف من رحى السرور. فلعل الدهر يبتسم له في الأعوام المقبلة فيعتاد الهناء ويألف وصفه وتحليل عناصره ويقدم على شرحه في الطبعة الثانية من هذه المذكرات شرحا وافيا إن شاء الله..

لم تستطع تلك الموجة القادمة من السرور أن تجري ذكريات الآلام التي عاناها في حلوان، والأخطاء الجراحية التي ارتكبها معه مدير المصح إهمالا وكسلا، لا تعمُّدا، لأن أبسط قواعد الانسانية العامة كانت تتطلب منه التدقيق في البحث عن المرض ووسائل اكتشافه.

ولم تحز في نفسه آلام العمليتين التي تحملها بقدر ما تحز في نفسه توجيه المديح في شعره إلى غير أهله، وهو يبرأ في مذكراته هذه إلى الله عز وجل مما قال، وإن كان غير قادر على إغفال نشر قصائده في المدير في ديوانه لأنها كانت صورة صادقة عن نفسه وشعوره آنذاك.

أما ثالثة الأثافي والداهية الدهياء التي حلت بطريف وكان يتمنى ألف مرة لو لم يحيطوه بها علما، والسهم الوحيد الذي لم يخطر بباله أن يسدده إلى صدره مجرم بَله طبيبا إنسانيا نبيلا صديقا؛ فعلم أحد أطباء المصح الأذكياء - وكان صديقا للشاعر - بنوع مرضه، وبالأسلوب السهل الذي يمكن كشفه به، ولكنه آثر الصمت بعد أن رأى المدير يذكر رأيه وأساليبه التي سيتبعها، خوفا من شبوب نار الخصومة بينهما وقد كان قلباهما متنافرين من قبل، وكان كلاهما يتجنب الاصطدام

بالآخر، فذهب الشاعر المسكين ضحية لتلك الخصومة وتحمّل من آلام العمليتين ومن أخبار السرطان، وانقطاع حبل الرجاء ما دك أعصابه دكا، مع أن حضرة الطبيب الجبان كان في وسعه انقاذه من آلامه النفسية بجملتين يعبر بهما إليه عن نوع المرض والوسيلة لاكتشافه، ولكن قاتل الله الجبن والجبناء.

(١٩)

كان لانتقال طريف إلى القصر العيني فوائد عديدة أهمها:

رؤية ولديه بعد أن حرم رؤيتها أربعة أشهر كاملة لم يفارقه خيالهما يقظانَ، ولا طيفهما نائما، وعندما رأى هالة، وقد هدفت للشهر الخامس من عمرها، طار بها سرورا ومد إليها يديه فارتمت على صدره بلهفة وشوق فاحتضنها، ولو استطاع ادخالها إلى صدره المنهوك لفعل، وأصبح له قلبان يدفع العديد منهما عنه كل سوء، فليست الحياة لدى طريف أن يدفع القلب الدم في العروق فحسب، بل الحياة عنده أن يصبّ الحُب الهنّاء في الأعصاب صبا؛ وقد ساعدت هي وأخوها نزار ببسماتهما الرقيقة، أباها كثيرا على استرداد قواه التي نَهكها النزف وهدها الألم.

ومن فوائد القصر العيني أن مرتب الشاعر قد انقطع عنه، ولم يكن له مورد آخر للرزق. والقصر العيني، رغم وجود أمهر الأطباء فيه، يقبل المرضى مجانا ولا يأخذ منهم مليما واحدا؛ ففيه ارتاح طريف، من التفكير في السرطان والموت ومن التفكير في المستشفى ونفقاته الطائلة.

ولم يبق عليه غير التفكير في تدبير أجرة الدار التي أبقاها على اسمه في القدس حفظا لأثاث بيته من الضياع.

وعجيب أن يخلو جيب طريف من المال وقد كان بين قومه ملء السمع والبصر، درَّ عليه قلمه، والعراق الكريم أموالا وفيرة،

ولكن أنّى للشاعر أن يفكر في المال الزائل ويهمل الذكر الخالد؟ فلو كان يحترف التدريس والأدب في بلاد أخرى لكان لجيبه شأن آخر، ولكن حسبه من دنياه محبة طلابه واحترامهم، وله أسوة بمن سبقه من الأدباء والمدرسين الذين بنوا لما بعد الموت لا لما قبله.

أما سرور طريفا باكتشاف نوع المرض الذي أصيب به فلم يكن له حد، وخاصة حين رأى الحكمة في أمر الإسلام بالابتعاد عن الكلاب، لأن الكيس الطفيلي الذي ترعرع في رئته كان مصدره كلب لحاكم انكليزي في نابلس يسكن الدور العلوي من المنزل الذي كان يسكنه طريف، وقد قضى الكلب نخبه بالمرض نفسه. فيا لحكمة الاسلام في الكلاب التي تحمل في أنفاسها الموت الزؤام. فالكلاب الكلاب أيها الناس.

(٢٠)

بينما كان طريف ينتظر بشرى إصابة رئته بالكيس الطُفيلي وخلوها من السرطان، قرأ في إحدى الصحف اليومية أبياتا لشوَيْعِر يرثي بها كُنّاشته التي ضمنها كل ما نظم من شعر، فسر الشاعر أيما سرور بذلك النبأ العظيم، ورأى أن الدنيا، رغم أمراضها ومصائبها ونكباتها العديدة

تستحق أن يتعلق بأهدابها بعدما خلت من نظم ذلك الشعرور الذي لم يسمع طريف أحدا يتلوه إلا أحس كأن فكي القارئ حجرا رحى تطحن قرونا لكثرة ما فيه من القعقعة والجفاف، والكلمات النابية. ومنذئذ حُببت الدنيا الفاتنة إلى مريضنا فتشبث بها بكل قواه، ووهبها قلبه، وأصبح يهاجم كل ناقد ينقد شعر صاحب الكُناشة الضائعة، لأنه مساعده على استرداد الحياة بعد أن كاد زمامها يفلت من بده. وحاشا أن يكون طريف من ينسى الجميل والأيادي البيضاء.

لم يكد صابنا ينعم بتنفس الشعر الصعداء على أثر فقدان الكُناشة حتى حمل إليه البريد كتابا من صاحب الدار التي ترك فيها عقاره يرجوه فيها برفق إخلاءها ليوفر على نفسه عناء التفكير في تدبير أجرتها طالما أن أمر مرضه سيطول. وقد قرأ طريف بين السطور شعور صاحب الدار بدنو أجل المستأجر وبقاء الدار بعد ذلك بدون تأجير، مع أن مريضنا لم يقم في الدار أكثر من شهرين في العام الهجري المنصرم ودفع لصاحبها الأجرة عن سنة كاملة دون أن يتأخر عن دفع الأقساط يوما واحدا. كان يخيل إليه أن الله سيأخذ بيده، ويهبه الشفاء وأنه سيعود إلى بلده قبل انتهاء العام الهجري، ولذا أهمل أمر التفكير في اخلاء الدار والتخلص من دفع أجرتها، وما دار في خلده أنه سيخرج منها على ذلك الشكل المثير. ولكنه عرف أمر الدنيا، وأدرك أن تحلي جميع الناس بالشهامة مطلب عسير، وأن أبناء القرن العشرين، ما عدا أصدقاءه وقليلين غيرهم، وإنما هم من عباد المادة وليس للنخوة العربية وحب الجار وروح الانسانية العامة أي أثر في نفوسهم، ولعلها

مُحيت من ذاكراتهم وبقيت خرساء في مهاجمهم، وهذا ما حمل على دعوة زوجهِ إلى السفر في اليوم ذاته إلى بلاده مع نسيبه السيد ع. م وهنالك ساعدها صديق الشاعر الحميم السيد نوح وشقيقه الشاعر ع. على اخلاء الدار ووضع الأثاث في غرفة أرضية عند الجيران لا تصلح لغير الدجاج، وقد أبى عليهم كرم نفسهم إلا أن يأخذوا الأجرة أضعاف أمثالها لأن لطريف مئات الكتب، خشي أصحاب الغرفة من ثقلها على دارهم أن تهدم! مع أن صاحبنا كان أستاذا لأبنائهم، ولم يأل جهدا في تثقيفهم وتعليمهم، ولعلهم نسوا الآية الكريمة {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}.

عادت زوجه بعد يومين تنوء بهدايا البرتقال اليافي، والأسكى دنيا الصيداوية، واللوز الأخضر الشامي، وقد وضعها طريف على النافذة العريضة بجوار سريره، وكانت بشرى نجاته من السرطان قد بلغته فتفتحت شهيته، واستعدت معدته كأنها مقدمة على حرب شعواء تشنها على الطعام أما عروقه التي كادت تتلاصق جُدُرها لكثرة ما نزفت من الدماء فقد رحبت بالدم الجديد تزفه إليها الفواكه اللّذة والطعام الدسم. لم ينم تلك الليلة ترحيبا بالهدية الشهية، وحينما أطفئت الأنوار بدأ فكاه يشتغلان بنشاط غريب وكان أكل اللوز يضايقه لأنه يحدث صوتا قد ينبه إليه الممرضين فيغزونه، وهو في حاجة ماسة إلى مثل ذلك الغذاء الشهي. وظل على ذلك المنوال ساعات لم يشعر كيف تقضت وقد هاله أنه مد يديه أخيرا إلى النافذة يتلمس برتقالة، أو حبة من الأسكى دنيا، أو اللوز الأخضر فلم يجيد، فحمد الله على

كل حال لأن معدته استطاعت قبول تلك الكمية الكبيرة مرة واحدة دون أن تلفظها ثم ألقى برأسه على الوسادة ونام نوما هنيئا وعندما استيقظ في الصباح وجد نفسه جائعا، فأخذه العجب من ذلك التطور الغريب في قوة. معدته وشكر الله عز وجل على نعمة اشتهاء الطعام واستمرائه، وتأكد من أن روكفلر الجد والثري العظيم لم يكن مسترقا حين عرض تقديم ثروته الضخمة كلها على من يجهل معدته من الأطباء قادرا على هضم الطعام البسيط. ومنذ ذلك اليوم بدأ طريف يضيف إلى وزنه يوميا الغرامات بالمئات، وعقد هدنة بين رئته والنزف الذي أبى مرة واحدة احترام شروط الهدنة فناوشها مناوشة بسيطة عاد على أثرها من المعركة مهزوما، لأن الرئة صمدت له فارتد هاربا حين رأى أن سهامه عادت لا تُحدث فيها إلا خدوشا بسيطة.

(٢١)

كان وجود الكيس الطفيلي في الرئة نادرا جدا في مرضى مصر، وهذا حمل الطبيب الانساني النبيل الأستاذ د. على دعوة أكبر عدد تسنَّت له دعوته من الأطباء لسماع محاضرة عن الكيس في الرئة وأعراضه وكيفية التحقق من وجوده، وكان من بين المدعوين مدير مصح حلوان الذي دهش حين جيء بمريضه طريف على كرسي ذي عجلتين رفعوه وهو عليه إلى المنصة حيث قام الشاعر العربي بإلقاء محاضرة بالإنجليزية أعجب بها المستمعون كثيرا ورشحه الأستاذ داي بعد فراغه منها لمنصب أستاذ محاضر في كلية الطب، فابتسم طريف وقال له إنه إذا كتب له الشفاء فلن يرضى بالعربية وشعرها ونثرها بديلا. وقد

طبعت تلك المحاضرة باللغة الانجليزية مع الصور الرنتجنية ووُزِّعت بعد ذلك على الأطباء.

كان بين المستمعين إلى المحاضر طبيب لم تكن صلات الود بينه وبين مدير مصح حلوان على ما يرام، فأحب استغلال حادث طريف للنيل منه فحرضه على رفع أمر مدير المصح إلى القضاء مطالبا إياه بتعويض مالي قدره ألف جنيه مصري جزاء إجرائه العمليتين الجراحيتين للشاعر خطأ، وأكد له المحرّض أنه رابح القضية لامحالة. ولكن طريفا ليس ممن يجرون وراء المادة، ولا ممن يهون عليهم إيذاء بني قومهم. فالدكتور المدير عربي، وقد اجتهد في التثبت من نوع الداء فأخفق من حيث ظن أنه أصاب، أضف إلى ذلك أنه مشبع بالروح العربية والدعوة إلى الوحدة العربية، وما كان طريف ليسيء إلى عربي من بني قومه ولو جاء هلاكه على يده. ألا يرتد إليه سهمه إذا سدده إلى صدر عربي؟ أليس هو القائل:

لئن نالني قومي بأسهم نقدهم

كشفت لهم صدري وحطمت أسهمي

(٢٢)

كانت الردهة التي وضع طريف في إحدى زواياها ردهة واسعة جدا تتسع لبضعة وعشرين سريرا، مرضاها جميعا مصابون بالأمراض الباطنية وكلهم فقراء معدمون ما عدا واحدا اسمه الحاج صبحي، وكان

منظرهـم تتقـزز منـه النفـوس لقذارتهـم، وهزالهـم، واصفـرار وجوههـم التـي لـولا تحـرك العيـون في المحاجـر لظنهـا الـرائي وجـوه مـوتى.

ومـا زاد في اشـمئزاز طريـف منهـم أنهـم كانـوا يرسـلون عيونهـم وقلوبهـم وراء الطعـام اللذيـذ الـذي أنفـرد بـه مـن دونهـم، وهـذا جعلـه يغـص بـكل لقمـة يزدردهـا لأنـه كان يشـعر أنـه يـزدرد معهـا نفوسـهم الجائعـة وأرواحهـم المحرومـة. ولمـا أعيـاه الأمـر ورأى الأطبـاء أن الزيـادة في وزنـه أصبحـت ضئيلـة، ضربـوا بينـه وبـين المرضى المسـاكين بحجـاب (Paravent) إبـان الأكل، ليتيحـوا لـه الأكل بشـهية، وليحولـوا دون أن يعلـم المـرضى الجيـاع بمـا يـرون مـن الطعـام الفاخـر. ولكـن هيهـات تُجـدى تلـك الخطـة مـع الشـاعر الحسـاس الـذي تصـور أن المـوت اخـترم حياتـه، وأن ولديـه يبيتـان عـلى الطـوى ليـلا، ويقفـان عـلى أبـواب المطاعـم يتصـوران جوعـا نهـارا، فأقشـعر بدنـه مـما صـوره لـه الخيـال فكيـف يطيـق أن يـرى اخوانـه مـن بنـي الإنسـان يورثهـم الجـوع مـوارد الحتـف حقيقـة؟ ذلـك لم يكـن في وسـع طريـف احتمالـه، فطلـب أن ترفـع الحجـاب بينـه وبينهـم دائمـا، فاستأنسـوا بـه، وشرعـوا بالتدريـج يقدمـون عـلى التحـدث إليـه، وعـلى تلبيـة جميـع رغباتـه عنـد مـا يغيـب الخـدم.

وعنـد مـا شـعروا بعطفـه الحقيقـي عليهـم، كشـفوا لـه عـن طواياهـم الطيبـة، فـرأى أن الفـرق عظيـم جـدا بـين منظرهـم المقـذر ومخبرهـم النقـي الناصـع، وعلـم أن لا هـم لهـم في الحيـاة الدنيـا غـير الحصـول عـلى اللقمـة بـشرف. ومعظـم حديثهـم كان يـدور حـول الطعـام، وقـد جـاءه أحدهـم يومـا والخجـل مـلء وجهـه، ورجـاه أن يعطيـه بقايـا عظـام الدجاجـة ليمُشّـها

بعد أن أنساه ظلم الزمان طعم الدجاج، فأعطاه طريف نصف نصيبه من الدجاجة فكاد يطير فرحة، وإن كان أكثر الدجاج الذي كان يقدم - بفضل المتعهدين - سبور آخر موديل من حيث النحافة والرشاقة كأنهم كانوا لا يزوّدون المرضى عنهم - وما أقلهم - إلا بالطيور المريضة المصابة بفقر الدم وشعارهم - ما للمريض سوى المريض. وكان الدجاج كان يقتات بالصخور الصم فأصبح اللحم الذي يكسوها، على رقته، كجلمود صخر حطه السيل من عل، والفرق. بينهما أن الصخرة تتفتت وهذه لا تتفتت، ولو اهتدى أصحاب مصانع القنابل إلى ذلك النوع من الدجاج لاشتروه كله وجعلوه قذائف المدافع تخترق المصفحات وتهدم الحصون.

لم يمض أسبوع على وجود طريف بين ظهراني تلك الفئة البائسة. من المرضى حتى استطاع أن يتغلغل إلى أعماق نفوسهم فسبر أغوارها وعرف ما تنطوي عليه من طهارة وصفاء، ووجد أنها خالية من الغش. والحقد كخواء جيوبهم من المال، فصار يصغي إلى شكواهم، ويتألم لألمهم، ويرثى لبلواهم، كأنهم جزء من نفسه وكان يوم خروج أحدهم من المستشفى صحيحا معافا عيدا لدى صاحبنا، وكانوا يودعونه بأدمع مدرارة سائلين الله عز وجل من صميم قلوبهم المؤمنة الطاهرة أن يعجل في شفائه وانقاذه مما هو فيه.

لقد فتحت تلك الطبقة الفقيرة عيني طريف على مشاهد من البؤس ما كان يستطيع تصورها بعين الخيال، فإذا به يراها بعين الحقيقة، ويا لها من حقيقة مرة تجردت من أثواب التمويه والخداع، منذ

ذلـك الحـين صـار يشـعر كأن قـذي عيونهـم في عينيـه، وأسـمالهم الباليـة علـى جسـمه، وكأن طبقـات الغبـار الكثيفـة السـوداء التـي تكسـو أقدامهـم تكسـو قدميـه. أمـا روحـه فقـد امتزجـت بأرواحهـم كتـمازج الماء بالمـر، وكانـت تعـود إليـه كاسـفة مهولـة كلـما قـضى واحـد منهـم - ومـا أكـثر الذيـن يقضـون هنـاك - ولا يعلـم إلا اللـه مـاذا كان يصنـع حافـظ شـاعر النيـل ومترجـم البؤسـاء لـو قـضى أسـبوعا واحـدا بـين أولئـك البائسـين الذيـن عاشرهـم طريـف سـبعة أسـابيع لـن تمحوهـا الأيـام مـن ذاكرتـه رغـم مـا فيهـا مـن ألم وعـذاب، وفي الألم والعـذاب لـذة أي لـذة.

كان أولئـك المـرضى ينتظـرون نصيبهـم مـن هديـة أهلهـم الأسـبوعية انتظـار المهمـة القفـر ديمـة القطـر. فمـرة أُهـدي إلى أحدهـم برتقالتـان مصريتـان، والبرتقالـة المصريـة تعـد في حجمهـا حفيـدة لجارتهـا اليافويـة، فـأبى عليـه كرمـه العـربي ونبـل نفسـه إلا أن يشـاطره طريـف هديتـه، فأخـذ البرتقالـة شـاكرا لـه أريحيتـه، وعندمـا تسـلم طريفـا في اليـوم التـالي صندوقـا مـن البرتقـال اليـافي أرسـله إليـه أخـوه، أهـداه برمتـه إلى المريـض الحاتمـي، مشـترطا عليـه إشراك جميـع مـرضى الردهـة، فـكان عـادلا جـدا في تقسـيمه ولم يـزد نصيبـه مـن نصيـب رفاقـه. وكان ظريفـا عندمـا أصر عـلى أن يشـاركهم ظريـف في اقتسـام الهديـة فاعتـذر شـاكرا مـسرورا. يـا للـه مـا أقـرب أولئـك المسـاكين إلى القلـوب..

أمـا في الليـل عندمـا كان طريـف يصـاب بـالأرق، فقـد كان المـرضى يتدافعـون إلى سريـره متباريـن في سرد الأقاصيـص عـلى مسـمعه، بأسـلوبهم السـاذج الـذي كان يصغـي إليـه بقلبـه وأذنيـه، فترتـاح أعصابـه المهتاجـة رويـدا

رويدا حتى يطبق الكرى أجفانه فينسلون من حوله، دون أن يحدثوا أدنى ضجة، سعداء لأنهم سامروا صديقهم ومهدوا للسبات سبيله إليه. يا ليت طريفا يعرف عناوينهم حتى يرسل إليهم مذكراته يضمنها ذكر أياديهم البيضاء عليه، وحبذا لو كان أحدهم يحسن القراءة فيقرأ تحية طريف الحارة إليه والى رفاقه الكرام.

(٢٣)

من الصور البارزة التي لا تزال عالقة بذهن طريف الكليل من أصدقائه نزلاء ردهة الأمراض الباطنية في القصر العيني، صورة جاره، العم طه.

في الثمانين من عمره، وكان سريره في الزاوية المقابلة لسرير صاحب هذا المذكرات ولا يفصل بينهما إلا سرير واحد. ولم يفز العم طه بأوفى قسط من محبة صاحبنا لأن له صوتا رخيما كان ينصت له جميع من في الردهة كأن على رؤوسهم الطير، وخاصة عند ترتيله آي الذكر الحكيم، بل لكبر سنه ومقره المدقع وإصابته بمرض الزحار (الدوسنطاريا) الذي جعله في حاجة ماسة إلى العطف والعناية الخاصة..

كان المسكين مؤذنا قطع عنه راتبه الضئيل يوم دخوله المستشفى، الأمر الذي حال بينه وبين التدخين بعد أن مارسه سبعين عاما فأصبح لتركه في حالة عصبية مزعجة، فمن صياح إلى عويل، إلى استنجاد بالله، مما حمل التمرجية على ضربه مرارا. فوبخهم ظريف وهددهم برفع

أمرهـم إلى ذوي الشـأن إن صـاح أحـد منهـم في وجـه العـم طـه أو نهـره. فاشـتد أزر العـم يجـاره وبـه شـوقه إلى التدخـين، فـما كان مـن طـرف إلا أن فـرض عـلى كل مـن يعـوده مـن أصدقائـه المدخنـين لفيفـة تبـغ (سـيجارة) تمـلى للعـم طـه عـدا مـا كان يشـتريه لـه، وإن هـي إلا بضعـة أيـام حتـى توطـدت الصداقـة بينهـما وأصبـح العـم طـه هادئـا لا يـكاد يفتـح فمـه إلا داعيـا اللـه عـز وجـل إلى الأخـذ بيـد طريـف وإنقـاذه مـن شر الكيـس الرابـض في رئتـه.

ففـي إحـدى الليـالي بينـما كان طريـف نائمـا، إذا بصـوت العـم طـه يـدوي في الردهـة دون أن يعلـم أحـد لذلـك سـببا، وعبثـا حـاول التمرجيـة والمـرضى حملـه عـلى السـكوت. فـما كان طريـف إلا أن رفـع عقيرتـه بغضـب قائـلا لـه:

- حسـباك صبرا يا عم طه وقد أزعجتنا.

فقال المسكين:

- سأسـكت إكراما لك يا سيدي.

ثـم أكـره الصديـق العزيـز نفسـه عـلى السـكوت التـام. وبعـد سـاعة انتقلـت روحـه إلى بارئهـا، فجـن جنـون طريـف وبـكاه مـدرارا، وطلـب إلى روحـه الطاهـرة أن تغتفـر لـه زلتـه الأخـيرة مـع صاحبهـا، لأن طريفـا لم يكـن يـدرى أن العـم طـه إنمـا كان في دور النـزع، وأنـه كان يصيـح في الجولـة الأخـيرة بينـه وبـين ملـك المـوت الـذي كان قـد شرع في اسـتلال روحـه مـن

بين جنبيه، ولم يعرف الشاعر كيف يكفر عن ذنبه الكبير فاللهم اغفر له إنك أرحم الراحمين.

ومما زاد الطين بلة أن اليوم التالي كان موعد الزيارة حين جاءت زوج المرحوم طه الشابة، وابنة له في عمر البدر وطلعته، تسألان طريفا عن عائلهما الوحيد وما جرى له، فأسقط في يده وتصير، فلا هو بقادر على ذكر الحقيقة ولا إخفائها. وشكرا لدمعتين حارتين تدحرجتا على خده رغما عنه شرحتا للبائسين كل شيء فانصرفتا نادبتين مُعوِلتين.

وقاهما الله شر عوادي الزمان، إنه الرؤوف الرحيم.

(٢٤)

ومن نزلاء الردهة الذين لم يستطع طريف نسيانهم، مريض مصب بداء الجوع وصل إلى المستشفى هزيلا جدا وقد لَصِبَ جلده بعظامه، ولما شبع وأعاد الغذاء اللون إلى محياه، وفصلت طبقة رقيقة من اللحم بين جلده وعظمه، أخرجوه من المستشفى فبكى وأعول متوسلا إليهم أن لا يقذفوه إلى الطرقات يتسكع فيها في النهار شريدا، ويلتحف سماءها في الليل طاويا، مع أن الخدام لم يدخروا وسعا في ضربه وإهانته. وكانت تلك أول مرة يرى فيها طريف إنسانا يخرج من المستشفى مكرها بعد أن ردت إليه العافية.

ونزيل آخر جاءه أحد الأطباء المساعدين لفحصه فلم تعجبه قامته القميئة وخيل إليه أنه لا يفهم من الطب شيئا فأراد أن يصرفه عنه

باللطف فقال له بعد أن كشف عن بطنه:

- خَبط لك شوية وروح.

وثالث ظهرت عليه أعراض الحمى وكان نبضه يربو على المائة في الدقيقة، وعيناه وخداه تلهب حرارة، ولكن ميزان الحرارة كان لا يدل على إصابته بالحمى أبدا.

فحار الأطباء جميعا من تلك الظاهرة الجديدة في الطب، ولكنهم بعد أيام اكتشفوا أن صاحبنا كان يضع الميزان من الجهة التي لا يوجد فيها زئبق.

ورابع أعجوبة طعم الدواء جرعه دفعة واحدة حبا في سرعة الشفاء ولو لم يسرع الأطباء إلى إسعافه لقضى نحبه خلال دقائق معدودات.

وخامس كان في حاجة إلى عملتين جراحيتين، أجريت له الأولى وبعد أن غيّبه المخدر عن الوعي، ولما جاء دور العملية الثانية ظن أن الأولى لم تنجح لأنهم خدروه، واعتقد أن تخدير المريض إنما هو لغشه لكي لا يرى أخطاء الأطباء أثناء اجراء العملية، ولذا أبى عليهم تخديره في العملية الثانية قائلا:

- لا يلدغ المؤمن جحر مرتين، لقد غششتموني في العملية الأولى ولن أسمح لكم بغشي مرة أخرى. تقدم يا دكتور وأجر إلى العملية بدون مخدر وبالله المستعان.

فضحك الجراح وصحبه وأجرى له العملية بدون محذر دون أن يظهر أنه تألم من المبضع قط. وبعد الانتهاء منها قال الطبيب:

- لا تظنني مغفلا، فلو لم أكن صاحيا لما قمت بعملك بإخلاص، ولأحرجتني إلى عملية ثالثة ورابعة. أما الآن فأنا مطمئن إلى شفائي التام وعدم احتياجي إلى عمليات.

لقد كان اطمئنانه في محله.

أما الشخصية الفذة التي كانت بين المرضى شخصية الحاج صبحي الرجل الذي منَّ عليه الله عز وجل بثروة لا بأس بها من سيارة للأجرة يمتلكها ويسوقها. وقد جاء المستشفى يشكو من تضخم في الكبد ولكنه كان يسميه، كما كان يسمي كل مرض باطني، بالرطوبة.

جاء يوما إلى طريف وقال له:

- يعزّ عليه أن يطول أمر مرضك مع أنك لست مصابا بشيء.

- لست مصابا بشيء! وكيف ذلك؟

- معاك رطوبة بسيطة. وهذه سببها خصومة بينك وبين الجن، ولا يمكن أن يكفوا عنك ويرفعوا راية السلام البيضاء إلا إذا تَدجّجت بالرقة والتعاويذ.

- ولم لم تعالج نفسك بالرقى والتعاويذ يا حاج صبحي؟

- لأن الجان متى دخلوا الكبد واستقروا فيها لا يخرجون منها إلا بعد انقضاء عام كامل وسأتماثل من علتي بعد ثلاثة أشهر بإذن الله.

- ومن يكتب لي تلك الرقي والتعاويذ؟

- أنا أكتبها لك.

- شكرا.

في اليوم التالي أعطى طريفا تعويذة قضى في كتابتها ساعات، فأخذها منه شاكرا ورماها في الليل من نافذته المطلة على الشارع دون أن يراه أحد. يجب علينا ألا نجابه الناس بالنيل مما اعتادوا عليه، واعتقدوا أنه الصواب إذا كانوا في ذكاء الحاج صبحي وجهله.

وللحاج صبحي ولع عجيب بالكرم الجهوري المجلجل كان يجب الإحسان إلى زملائه الفقراء، آخذا على نفسه إظهاره لكل من في الردهة، فإذا أراد أن يجود بلفيفة تبغ على جاره خليل ناداه بملء فيه ثم التفت يمينا وشمالا ليتأكد من وصول صوته الجهير إلى كل مسمع وقال رافع عقيرته:

- خذ سيجارة من دخاني الفاخر. دخن علّها تنجلي. وبعد أن يتناولها خليل شاكرا للمحسن الكريم جوده، يرفع الحاج صبحي يديه إلى شاربيه العنتريين يفتلهما إلى الأعلى فيقفان كأنهما سنانانِ يحرسان وجنتيه. وأكثر ما يحلو له احسانه إلى المرضى يوم الجمعة حين تمج

الردهـة بالعائديـن والعائـدات، فيـدوي صوتـه الجهـوري معلنـا نـوع مـا يجـود بـه عـلى المـرضى تـم يُصغـي إلى مـا يقابـل بـه مـن الشـكر والدعـاء.

إنــه أحــد مجانــين العظمــة، وهــذا النــوع مــن النــاس قلــما يخلــو مــن الشــهامة والتضحيــة في ســبيل الغــير، وفي كثــير مــن الحــالات كان الحــاج صبحـي ينهـض مـن سريـره ليسـاعد التمرجيـة في رفـع المريـض أو إجلاسـه، مـع أنـه لا يقـل عنـه حاجـة إلى المسـاعدة. كان سريـره قـرب بـاب الردهـة والويـل كل الويـل لمـن يدخـل دون أن يحيـي الحـاج صبحـي؛ فإنـه لا يـكلّ عـن معاتبتـه النهـار أو الأسـبوع بطولـه. أمـا نصيـب مـن يحبـه فَـردّ خـير جـدا مـن تحتـه مصحوبـا بالدعـاء بالهنـاء وطـول البقـاء.

وكان طريــف ممــن فــازوا بــرضى الحــاج صبحــي عنهــم، وكان يتعمــد في كثـير مـن الأحيـان أن يكـون أول القائلـين لـه صبـاح الخـير. ومـرة ذهـب إلى سريـره قبيـل شروق الشـمس بينـما كان نائمـا وأيقظـه برفـق قائـلا لـه:

- صبـاح الخـير يـا عمـي الحـاج. لم تطاوعنـي نفـسي أن أمـر بسريـرك دون أن ألقــي عليــك تحيــة الصبــاح، لأن اليــوم الــدي يصبحنــي فيــه محيــاك البسـام لهـو يـوم أجنـي فيـه الهنـاء والسـعادة.

فلـم يبـدُ عليـه إي انزعـاج مـن إيقاظـه مـن سـباته اللذيـذ في الفجـر بـل ابتسـم ابتسـامة عريضـة وقـال:

- يـا صبـاح النـور، بـل يـا صبـاح الفـل والياسـمين. إن إيقـاظ سـعادة البيـه لي شرف عظيـم.

ثم شرع يدعو لطريف بعبارات طويلة تمنى له فيها كل الخير والشفاء ولم يعلق بذاكرته منها شيء لحسن حظ القراء.

(٢٥)

إن وجوده طريف في القصر العيني أفاده كثيرا وخاصة في إقباله على تناول الطعام بشهية دون أن يبحث فيه عن قشة، أو قشرة فلفل، أو حصاة صغيرة في الأرز، أو قطعة بصل محروقة مما كان يذوده قبل المرض عن تناول الطعام إذا وجده فيه، والاشمئزاز على المائدة - مهما كان مسبّبه بسيطا - يعوق عملية الهضم بتقليل الافرازات المعدية الهاضمة. ولا حاجة بصاحب المذكرات الذي عاش في أحضان النعمة والدلال إلى أن يذكر أنواع الطفيليات والحشرات التي كان يجدها في طعامه فينحيها بهدوء ثم يتم تناول الأكل. وعندما كتب إلى والدته خبرها أنه يقبل بشهية على تناول طعام كالذي ذكر كادت لا تصدقه لولا معرفتها بكرهه الشديد للكذب.

يجب أن نعتاد الاخشيشان، فالنعم لا تدوم. والتعود على الحياة الأسبارطية ضروري لنا في هذا الزمان العجيب الذي يدين فيه كل شيء بالقوة، ويتطلب الصبر والاحتمال. وإلا أَبطرتنا النعمة، وأقعدنا الكسل، ودب إلى رجولتنا التخنث كما تدب الحمى إلى الأوصال فتدكها دكا.

رب !.. لا تجعل للتخنث إلى الأمة العربية سبيلا.

(٢٦)

فقر رأي الأطباء على أن الكيس الطفيلي يجب إزالته بعملية جراحية، وقد عهد إلى جراح غير عربي الإقدام على تلك العملية الخطرة جدا، وكان من أمهر الجراحين نظريا، يعرف دقائق كل عملية جراحية كما يعرفها أمهر جراح عالمي. وكان أنيقا دقيقا متأنيا في عمليته، بحيث يبقى مرضاه مدة طويلة تحت تأثير المخدر فيموت القسم الأعظم منهم قبل نهاية العملية. ولكن صاحبنا يتمم عمله بكل هدوء ودقة، ثم يلتفت إلى طلابه الكثر الملتفين حوله قائلا: «لقد نجحت العملية نجاحا باهرا ولكن المريض مات». ولا يرى طريف له ذنبا في ذلك لأن شعاره في الحياة كره الشيطان ومخالفة كل أوامره، وهو لعمر الحق شعار محبب إلى ذوي القلوب المؤمنة. وبما أن العجلة من الشيطان، فقد رأى حضرته وجوب التأني في عملياته نكاية بالشيطان الرجيم الذي تحيق به اللعنة إلى يوم الدين.

كان طريف يجهل أن حضرة الجراح الكبير من أكبر المتعهدين لسيدنا عزريل يصدر إليه الأرواح بالجملة، وكان الشاعر مسلما أموره إلى الله عز وجل، وقد أعطاه سُكّان سفينة حياته إذا شاء أرْساها على شاطئ الحياة وإذا شاء أرساها على شاطئ الموت. وفي اليوم السابق لليوم المحدد لإجراء العملية لطريف، بينما كان يعانق ولديه عناقا حارا، ويودعهما بحنو ودعا ربما كان الأخير، ويشبعهما بنظرات الأبوة المملوءة بالعطف والحنان، وبدمعتين سخينتين كبيرتين تدحرجتا على خده، إذا بطبيب عربي كان يشهد ذلك المنظر العاطفي، وكان حديث

عهـد بولـده البكـر، يدنـو مـن طريـف ويقـول لـه:

- أريـد أن أسر إليك أمرا مهما جدا.

- تفضل يا دكتور.

- لا أقوله قبل أن تعاهدني على كتم اسـمي عن كل إنسـان.

- أعاهـدك يـا دكتور عهد عـربي أمين، فهل تريد عهدا أوثق من هذا؟

- هذا كافٍ جدا.

- أفض إلى برك إذن.

- اسـمع يـا عزيـزي، لقـد آلمنـي جـدا وداعـك الأبـوي الحـار لولديـك وفي نفسي أنـك سـتقدم للجـار تضحيـة سـائغة، وحفـزني ضمـيري وشـفقتي عـلى عـربي مـن بنـي قومـي إلى تحذيـرك مـن ذلـك الدكتـور القصـاب الـذي سـيجهز عـلى شـبابك ببطئـه وأناتـه..

-- لـك شـكري الجزيـل يـا أخـا العـرب، واني لأرجـوك أن تدلنـي على الوسـيلة التـي تمكننـي مـن النجـاة من عـدو الشـيطان.

- مـا عليـك إلا أن تخـبر الأسـتاذ د. أنـك تـود أن تجـرى لـك العمليـة في برلـين.

- في برلين؟؟

- نعـم. لأن فيهـا أعظـم جـراح عالمـي للصـدر، هـو الأسـتاذ زاور بـروخ، وحالتـك المادية تسـاعدك، وللـه الحمـد، عـلى السـفر إلى أقـصى الأرض.

توقـف طريـف هنيـة عـن الإجابـة لأن مظهـره كان يـدل عـلى الـثراء، وكفـه التـي عودهـا البسـط، ونفسـه العربيـة أبتـا عليـه البـوح بحالتـه الماليـة؛ لئـلا يتضـاءل احـترام القـوم لـه وقـد علمتـه الأيـام أن النـاس لا يقيمـون. وزنـا في هـذا العـصر المـادي لغـير المـال فقـال:

- المـال متوفـر والحمـد للـه، ولكنـي أفكـر في الوسـيلة التـي تضمـن إلى الوصـول إلى زاور بـروخ سـالما، وصحتـي عـلى مـا تـرى.

- إن صحتـك في تحسـن مسـتمر، وأعتقـد أن في وسـعك السـفر بحريـة بعـد شـهر، وطبيـب الباخـرة «النيـل» صديقـي وسـأوصيه بالعنايـة بـاك. عنايـة تفـوق كل وصـف.

وبينـما كان الطبيـب يهـم بالانـصراف، إذا بالدكتـور البكتريولوجـي. المـصري العظيـم ونسـيب طريـف، يدخـل الردهـة لعيـادة الشـاعر فيحـس أنـه انتشـل مـن وهـدة الحـيرة، فيشـكر قلبـه الأقـدار والعنايـة الإلهيـة التـي أرسـلت إليـه الدكتـور د. في حينـه، وإذا بالطبيبـين صديقـان حميـمان، فيتصفحـان بحـرارة ثـم يسـأل طريـف الدكتـور د. قائـلا:

- هل تعرف الأسـتاذ زاور بروخ؟

- إنه أسـتاذي، وماذا تريد منه؟

- أريـد أن أذهب إليـه ليجري لي عملية إزالة الكيس.

- هـذا أمـر بسـيط جـدا. سأرسـل إليـه الآن رسـالة بالبريـد الجـوي ليختصـك بسريـر في مستشـفاه العظيـم، ومـا عليـك إلا أن تدبـر نفسـك مـن الآن وتسـتعد للسـفر في أقـرب فرصـة.

وبعـد قليـل ذهـب الطبيبـان وطريـف مـسرور جـدا لهـذا التوفيـق الالهـي الـذي أتيـح لـه، وحائـر في تدبـير المـال الـلازم لتلـك الرحلـة الطويلـة وبعـد هنيهـة مثـل أمامـه خيـال صديقـه الحليـم الأسـتاذ ن. ح. وخيـال عـدد وافـر مـن أصدقائـه الخُلـص. وإن هـي إلا ثـلاث سـاعات حتـى حمـل البريـد الجـوي الذاهـب إلى فلسـطين وسـوريا ولبنـان والعـراق بضعـة وثلاثـين رسـالة يطلـب فيهـا طريـف إلى أصدقائـه وبعـض أهلـه تزويـده بالمـال الـلازم متعهـدا أن يـرده إليهـم بعـد شـفائه كأنـه منـه قـاب قوسـين أو أدنى دون أن يخطـر لـه المـوت إذ ذاك ببـال.

وفي صبـاح اليـوم التـالي زود طريفـا أحـد زعـماء العـرب الأفـذاذ برسـالة إلى صديقـه جـراح مـصر الأكـبر يوصيـه فيهـا بطريـف خـيرا.

فبعـث بهـا طريف إليه، ومعها بطاقة باسـمه حَبَّر عليها الأبيات الآتية:

نبوغـك في الجراحـة يـا علـيُّ كفضلـك في الأنام له دويُّ

تُطيـف بـك القلـوب معـوِّذات لأنـك، إن فُديت بها حريُّ

طـلاوة معـشر، وجـلال قـدر وأنـفٌ، إن دِجا خطبٌ حميُّ

وقلـب لا يُـراع إذا ادلهمّـت رزايـا جرها داءٌ عصيُّ

فكم وافاك مُحتضرٌ مُسَجّى		يكادُ إليك يسبقه النعيُّ

لمستُ بمبضعٍ فيه كُلوما		فلمّمت، وامحى اليأسُ العتيُّ

لأن عرفَ الأساةُ لهم نبيا		فإنك يا فتى مصرَ النبيُّ

وكل فتى أسوتُ له جراحا		ينادي «لا فتى إلا عليُّ»

فما كان من الجراح الأكبر إلا أن هرع إلى طريف ومعه رسالة ممتازة إلى صديقه الجراح العظيم زاور بروخ يرجوه فيها أن يجري العملية لطريف بنفسه. وفيها ذكر عاطر الأخلاق طريف وشعره، رجا مريضنا بعدها أن يكتب له الشفاء ليكون عند حسن ظن جراح مصر به.

لا يرى طريف بدا هنا من تسجيل شكره العظيم للجراح والعالم المربي النبيل ع. إ. لأنه أبى أن يجري العملية لصدر مريضنا طالما صديقه جراح الصدر العظيم زاور بروخ على قيد الحياة. وزاور بروخ نفسه حين جاء إلى مصر على رأس مؤتمر الأطباء العالمي الذي عقد في مصر ورأى مهارة جراحنا العربي الفائقة في إزالة الطحال، أصبح يرسل المرضى العظام الذين يؤمونه من أنحاء العالم لإزالة الطحال إلى طبيبنا العربي معترفا بأنه أقدر طبيب في العالم على إزالتها وكان جراحنا يُعنى بمرضى الأستاذ زاور بروخ عناية كبرى ويردهم سالمين إلى بلادهم.

ومعظم مرضى الأستاذ زاور بروخ من الملوك وعظماء العالم. وهو الذي أجرى لجلالة الملاك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى العملية الجراحية الكبرى في لندن، بعد أن نفض جميع جراحي العالم أيديهم

منـه، ورأوا أن لا أمـل في شـفائه، وأن جسـمه لا يتحمـل العمليـة وقـد نجحـت العمليـة وأنقـذ جلالتـه مـن مـوت لا شـك فيـه وعندمـا عـاد الجـراح في اليـوم التـالي إلى برلـين وجـد برقيـة ماليـة مـن حكومـة جلالتـه قدرهـا مليونـا مـارك أخـذ منهـا مليونـا لنفسـه، وأهـدى المستشـفى الشـهير الـذي يعمـل فيـه (Hospital Charite) المليـون الآخـر.

(٢٧)

لم يكـد طريـف يطمـئن بالـه لنجاتـه مـن مبضـع الجـزار، حتـى انصبـت عليـه الحـوالات الماليـة مـن أصدقائـه الخلّـص وأهلـه انصبـاب الغيـث ومـن بينهـا رسـالة مـن صديقـه الأسـتاذ ن. ح. فيهـا شـك ممهـور عـلى بيـاض باسـمه يخـول صديقـه أن يسـحب بـه أي مبلـغ يريـد ولكـن طريفـا لم يحتـج منـه إلى غـير خمسـين جنيهـا لكـثرة مـا جـاءه مـن نبـلاء العـرب أصدقائـه الذيـن كان يراهـم قليلـين في سرائـه، ولكنهـم أروه أنهـم كـثر في ضرائـه، وقـد صـدق ظنـه فيهـم حـين قـال مـن قصيـدة:

وما أنا لولا الأصدقاءُ سـوى فتى

عليـه الرزايا الماحقات تصولُ

فإني بجسـمي الواهن القلب واحد

ولكنـي بالأصدقاء قَبِيل

إن الصديـق الحقيقـي أغلى كنز في هذا الوجود.

ولم يُنغِّص على مريضنا هناءته العتيدة إلا قول أحد الأطباء له بأن الأستاذ زاور بروخ قد قضى نحبه، ولو تأخر جواب الجراح العظيم يومين آخرين لعاود النزف طريفا وقضى عليه سوء الطالع، ولكن وصول الجواب بالترحيب بالشاعر واختصاصه بسرير في خير أقسام المستشفى بتوقيع زاور بروخ نفسه، هدأ الأعصاب الثائرة وجبر الخاطر الكبير.

ولم يكد بال طريف يركن إلى الهدوء حتى جاءه طبيب آخر وقال له «لا يمكن إجراء العملية لك طالما توجد التصاقات بين رئتك وغشاها. كما أخبرك أحد أطباء القدس» ولسوء حظ طريف أن أحدا من الأطباء الذين سألهم عن إمكان إجراء العملية مع وجود الالتصاقات لم يعطه جوابا شافيا، وهم معذورون لجهلهم بعملية فتح الصدر بالمبضع التي اخترعها زاور بروخ نفسه. ولكن صاحبنا سلم أمره إلى بارئه ليتصرف به كما يشاء وهو أرحم الراحمين.

(٢٨)

أما تمرجية القصر فلم يكونوا أخف وطأة من زملائهم تمرجية حلوان فرمة جيء إلى طريف بطعام الغداء تنقصه الدجاجة الماجنة. ولما سأل عنها قال له التمرجي ضاحكا، كأنه لم يأت أمرا إدا:

- رفرفت وطارت يا بيه.

وعندما سرق البيض المسلوق المخصص لصاحبنا قال له التمرجي الأمين:

- نقفتها الفراريج وهربت يا بيه.

وحين قال له طريف:

- فهمنا أن الدجاجة رفرفت وطارت، والفراريج نقفت البيض وهربت، فهل نبتت للسمكة أجنحة فطارت؟

ولم يَعدم حضرته وسيلة ينقذ نفسه بها إذ قال على الفور:

- اشتاقت إلى البحر فعادت إليه يا سعادة البيه.

فكظم طريف غيظه وضحك ملء فيه، وشر البلية ما يضحك.

وكان بين التمرجية واحد خصص لخدمة طريف، لأن أحد أنسباء مريضنا كان السبب في توظيفه، فاعترافا بالجميل، وتلبية لصوت ضميره الحي، لم يسرق إلا نصف البيض المخصص لصاحبنا. فما كان من طريف إلا أن ناداه وقال له:

- لعن الله نصف شرفك.

- لماذا يا بيه؟

- لأنك سرقت نصف البيض.

وكان طريف يعطى في وريده يوميا عشرة غرامات من ماء الكلس. وكانت أنابيب (Ampoules) عشرة الغرامات قد نفدت، فصاروا يزودونه بأنبوبين في كل منهما خمسة غرامات. فسرق التمرجي الأمين نصف الأنابيب، وراح يزود صاحبنا يوميا بأنبوب واحد من ذوات خمسة الغرامات، فله نصف شكر الشاعر؛ لأنه لم يحرمه النصف الآخر. وهذا

كثير على تمرجي في مثل أمانته واخلاصه لأسرته التي لولا عائلها اللص لماتت جوعا.

أصيب طريف مرة بالتهاب في اللوزتين فوصف له الطبيب محلول كلورات البوتاس ليتغرغر به. ولما وضع المحلول في فمه.. - وكان يعرف طعمه من قبل - شعر أنه شيء آخر. وعندما عرف الطبيب بالأمر أرسل العلاج إلى التحليل فوجد أن التمرجي المحترم استبدل العلاج بماء فيا للمريض المسكين!!

ونسي أحد الأطباء قلمه المَداد (الباكر) يوما في الردهة، فسرقه أحد التمرجية دون أن يجرؤ المريض الفقير على البوح باسمه لان الطبيب لا يستطيع حمايته من شر التمرجي الدكتاتور.

وكثيرا ما شاهد طريف أقرباء الممرضين (التمرجية) ومن يلوذ مهم يخرجون من المستشفى محملين بكل ما يلزم الإسعاف الأولي، وبضروب العلاجات التي يحرمون المرضى من فوائدها والتي تسبب اختفاؤها في موت كثير من المرضى البائسين.

ولم يكن رئيس الممرضين ليتغاضى عن آثامهم لو لم يكن شريكا لهم، ولو لم يكن يأخذ من كل واحد منهم عشرين قرشا شهريا، وهيهات يستطيع ممرض الامتناع عن دفع الضريبة الشهرية، وفي وسع رئيسه طرده والقضاء المبرم على أسرته في محيط يمج بالعاطلين وطلاب الرغيف.

صحيح أن لا عذر للممرضين فيما يصنعون، ولكن لا عذر أيضا للحكومة التي تفترض أن ثلاثة جنيهات تكفي لإعالة أسرة كاملة مدة شهر طويل. فعسى أن ينصف أولئك الممرضون في رواتبهم ثم يفرض عليهم أشد أنواع العقاب إذا ما عبثوا بحرمة الأمانة وعادوا إلى السلب والنهب.

(٢٩)

لم ينقض الأسبوع السابع على وجود طريف في القصر العيني حتى خرج منه مشيعا بعبرات رفاقه المرضى السخينة، وبدعواتهم الحارة لله الأخذ بناصره وإلباسه ثوب العافية. ولما كانوا لا يستطيعون الخروج من الردهة والوصول معه إلى باب المستشفى لإلقاء النظرة الأخيرة عليه ظل هو ملتفتا وراءه ليرى الوجوه الشاحبة المُخلصة مُطلة من نوافذ الردهة، وشعر أن حرارة قلوبهم المؤمنة، واخلاصهم الحار قد تبعاه يبثانه الود والوفاء، ويخلقان حوله جو من الطمأنينة والراحة النفسية لم يكن له به عهد في أيام محنه الماضية المتلاحقة، وما أكثرها. لم يشك طريف في أن المحبة والوفاء والاخلاص، إذا أورقت في النفس الانسانية، جعلت جحيمها نعيا وشقاءها هناء. وقد أجابهم طريف على عواطفهم الملتهبة برفع يده ملوحا بمنديله، وبدمعتين أسبلتا على وجنتيه إحداهما سخينة محرقة لفراقهم وتركهم بلا مجنّ يدرأ عنهم غارات الممرضين وأذيتهم، والأخرى دمعة ذرفتها الغبطة لذلك الوفاء العجيب، والاخلاص النادر، والمحبة النقية التي غمروه بها. اللهم أشدد أزر كل مريض وكن له عونا ونصيرا.

في اليـوم التـالي ركـب مريضنـا الباخـرة «النيـل» مـن مينـاء الإسـكندرية وكانـت ابنتـه هالـة، وقـد هدفـت إلى الشـهر السـابع مـن عمرهـا، محمولـة عـلى الرصيـف رافعـة رأسـها إليـه وعيناهـا لا تـكادان تتحـولان عنـه أو تطرفـان لئـلا تفوتهـا نظـرة تتـزود بهـا مـن أبيهـا الـذي حرمهـا مرضـه مـن نعيـم قبلاتـه، والركـون إلى صـدره مُتلفِّعـة بحـرارة أنفاسـه.

أمـا طريـف فلـم يـرَ مـن مئـات المودِّعـين عـلى الرصيـف غـير ابنتـه، وخيـل إليـه أن عينيهـا المُبينَتـين قـد انبعثـت منهـما أشـعة سـينية نفـذت إلى رئتـه المكلومـة فلمَّـت جراحهـا، وأكسـبت خلاياهـا وأعصابهـا قـوة خارقـة للعـادة تكفيهـا زاد طيلـة الرحلـة، وتعينهـا عـلى هُـدام البحـر وسـفر الـبر.

ثـم تحركـت الباخـرة النيـل باسـم اللـه مجراهـا، وراحـت تشـق صـدر اليـم كأنهـا عـروس تـزف إلى عروسـها، وخيـل إلى طريـق وهـو واقـف عـلى ظهـر السـفينة ليتـزود بالنظـرة الأخـيرة مـن ابنتـه، أن قلبـه فـر منـه وارتمـى عـلى قدميهـا الصغيرتـين، لأنـه وضـع يـده عـلى صـدره الأيـسر فلـم يُحـس لوجيـب قلبـه أثـرا فقـال:

تَحسّست قلبي في الضُّلوع فلم أجدُ   لـه أثرا، إني أعيشُ بلا قلب

وعندمـا غابـت ابنتـه عـن مـدى بـصره غـادر ظهـر السـفينة إلى قمرَتـه حيـث ألقـى بنفسـه عـلى فراشـه ليأخـذ قسـطه مـن الراحـة عمـلا بوصيـة الطبيـب، وكان النُـدُلُ في اليومـين الأولـين يحـضرون لـه الطعـام إلى القمـرة، والطبيـب يـزوره يوميـا لإعطائـه مـاء الكلـس في الوريـد، ولكنـه شـعر في اليـوم الثالـث بنشـاط غريـب يـدب إلى جسـمه، وسـاعده تشـجيع رفيقـه

في القمـرة السـيد ف. ب تاجـر السـاعات الشـهير بالقاهـرة عـلى الخـروج والتمتـع بمنظـر البحـر الخـلّاب. فسـبح بحمـد ربـه عـلى النعمـة التـي أولاه إياهـا بالركـوب في باخـرة عربيـة، وتكحيـل عينيـه بركـوب بحـر العـرب (المتوسـط) الـذي كانـت تتهـادى فـوق أثباجِـه سـفن قومـه في القـرون الحاليـة لنـشر الثقافـة العربيـة، والمدنيـة العربيـة في قلـب العـالم المتمـدن آنـذاك، وتمنـى أن يكتـب لـه الشـفاء، ويـرى فيـما تبقـى لـه مـن الدهـر الرايـة العربيـة تخفـق فـوق أسـطول عـربي عظيـم بنـشر المحبـة والسـلام والعلـم في أرجـاء المعمـورة ويذيـع بـين جميـع شـعوب العـالم مبـادئ الحريـة والعـدل والمسـاواة التـي يقدمهـا العـرب، وليـس ذلـك عـلى اللـه العظيـم بعزيـز.

رأى طريـف أنـه يركـب بحـرا عربيـا، لأن جـل المشرفـين عـلى إدارة الباخـرة الجبـارة النظيفـة الممتـازة هـم مـن اخوانـه العـرب، وسره أن النظـام فيهـا غايـة مـا تصبـو إليـه النفـس، فـكان ذلـك علاجـا نفسـيا سـاعد الطـب عـلى شـد أزر رئتـه وفتـح شـهيته للطعـام العـربيّ اللذيـذ.

ولكـن الصفـاء لا يـدوم، إذ مـا كاد صاحبنـا يذهـب إلى غرفـة الطعـام ويجلـس عـلى الكـرسي المخصـص لـه عـلى المائـدة، حتـى رأى فتـاة في نحـو الثلاثـين مـن عمرهـا تقتحـم الفرعيـة ظالِعـة وعليهـا ثيـاب حريريـة شـفافة ذات ألـوان براقـة تربـو في عددهـا عـلى ألـوان قـوس السـحاب.. وعندمـا وصلـت إلى مائدتـه جلسـت أمامـه، فنظـر إليهـا بطـرف عينيـه فـرأى وجهـا قـد لعبـت فيـه المسـاحيق والصناعـة حتـى غـيرت معالمـه الحقيقيـة، وأبـصر أنفـا أقنـى طويـلا متدليـا عـلى محياهـا غـير الوسـيم كأنـه أنـف الجوكـر

في الـورق. فاسـتعاذ طريـف باللـه مـن ذلـك المنظـر المرعـب، لأنـه كان، كصاحبـه ابـن الرومـي، يتطـير مـن الوجـوه القبيحـة، ويـرى أنهـا مجلبـة للشـؤم، فيخـاف سـوء العاقبـة وحـاول أن لا ينظـر إليهـا، وراح يقـرأ في قلبـه بـين كل لقمـة وأخـرى سـورة «قـل أعـوذ بـرب الفلـق، مـن شر مـا خلـق»، ولـولا خجلـه ممـن حولـه لعـاد إلى قمرتـه وأراح نفسـه مـما قـد يجـر عليهـا التفكـير في ذلـك الوجـه الـذي ذهـب بشـهية صاحبنـا للطعـام، ولم تسـتطع جميـع أنـواع التوابـل والمقبـلات (Aperetif) مـن ردهـا إليـه ولكـن حضرتهـا - سـامحها اللـه - لم تكـن تعلـم أن طريفـا أديـب شـاعر حتـى راحـت تسـتلفت نظـره بأحاديـث وظـرف أدبيـة متنوعـة غايـة في الطـلاوة، وحسـن الأداء، أصغـى إليهـا الجميـع بإعجـاب، ولكـن صاحبنـا تظاهـر بأنـه في واد آخـر غـير الـوادي الـذي كانـت تتنقـل بـين أزهـاره ورياحينـه.

ولمـا عيـل صبرهـا - وحبـل الصـبر لـدى بنـات حـواء قصـير - التفتـت إليـه قائلـة:

- ما رأي الأسـتاذ في الطرائف الأدبية التي أوردتها؟

- ممتازة يا آنسة.

- روز.

- تشرفنا يا آنسـة وردة.

- اسـمي روز يا أستاذ.

- ألست عربية؟

- بلى.

- إذن اسمك الآنسة وردة، ولو كنت فرنسية لقلت المدموازيل روز.

- صدقت يا أستاذ.

ثم التفتت إلى والدتها وقالت لها «اسمي من الآن فصاعدا وردة إكراما للأستاذ».

فقال لها الأستاذ:

- إكراما للحقيقة والعروبة، وخاصة لأنك أديبة عربية من الطراز الأول.

فتمايلت على كرسيها عجبا وشمخت بأنفها قائلة:

- صدقت يا أستاذ. إنني عربية صميمة من أسرة تجري في عروقها دماء الغساسنة الأماجد، واشتهرت منذ مئات السنين إلى اليوم بالشعر والأدب.

فانبسطت أسارير طريف وقال لها:

- هذا مما يدعو إلى الفخر والأعجاب.

- أتعرف الشاعر فلانا؟

- نعم. إنه لشاعر عظيم.

- إنه أبي.

- والشاعر فلانا؟

- قرأت له ديوانه الممتاز الأخير.

- إنه خالي.

- إذن أنت كريمة النبعتَيْن. وما صلة الشاعر الملهم فلان بك؟

- إنه شقيقي. أو تعرفه؟

- إنه صديقي وبيني وبينه مراسلات أدبية ومساجلات شعرية لم تنقطع إلا منذ ألم بي المرض قبل بضعة عشر شهرا.

- لعلك الشاعر فلان؟

- أنا بعينه.

- ولم يكد طريف المسكين يقول جملته الأخيرة حتى قفزت حضرتها من مقعدها كأنها كانت جالسة على رقاص، واندفعت إليه بسرعة تهز ذات اليمين وذات الشمال، وصافحته بحرارة ثم أمسكت به بيديها الاثنتين وهزته هزا عنيفا حتى اصطدم أنفها بوجهه ولو لم يتمالك نفسه أسقط أرضا وسقطت فوقه. ثم قالت:

- هذه أسعد لحظة في حياتي.

- فقال لها طريف وقد نالت منه الحيرة والذهول أيُّ منال:

- وأنا كذلك يا آنسة وردة.

- بل الشاعرة وردة. وربما يسرّك أن تعرف يا أستاذ أن عدد الشعراء الأحياء من أسرتنا سبعة وعشرون، والكتاب بضعة وأربعون، وكتاب الأقصوصة يربون على الأربعين فنحن كما ترى، بيت أدب.

فقال لها طريف بالعامية على الفور.

- عَرفتُك عالرِّيحة.

فضجَّت قاعة الطعام بالضحك، ولحسن الحظ لم تفهم الشاعرة ووالدتها النكتة اللاذعة التي لم يستطع طريف حبسها.

منذ تلك اللحظة أصبحت وردة ذات الروح الخفيفة مدارا لتندر طريف وصحبه، وصارت تتقبل المزاح والدعابة بصدر رحب، لأن صاحبنا كان يتظاهر بالإصغاء التام إلى شعرها الركيك، ويبدى لها - على غير عادته وصراحته - اعجابه به.

ما أطيب قلب المرأة.

(٣٠)

كان من دلائل رضاه تعالى عن طريف، تهيئة سفر السيد ف. ب. معه، لأنه يسافر سنويا إلى أوروبا ويعرف جميع التفصيلات عن قطاراتها، ومواعيدها، وعن النقود المتداولة في كل منها، وما يجب أن يصنعه الأجانب المسافرون إلى ألمانيا من حيث شراء الماركات المستحيلة التي يساوي كل عشرين منها جنيها انكليزيا بينما يساوي الجنيه الانكليزي في ألمانيا اثني عشر ماركا من ماركات الرايخ، فيربح الأجنبي بذلك

ثمانيـة مـاركات مـن كل جنيـه اسـترليني وهـو ولا شـك ربـح وفـير.

كان طريـف في حاجـة ماسـة إليـه، ولـولا إرشـاد السـيد ف. لضاعـت عـلى صاحبنـا مبالـغ طائلـة لم يكـن في غنـى عنهـا.

انتهـت الرحلـة البحريـة عـلى خـير مـا يـرام، دون أن يعكـر النـزف عـلى صاحبنـا مزاجـه، ويبـث الرعـب في نفسـه وهـو بعيـد عـن المستشـفيات ووسـائل إسـعافها الناعمـة. ومـا كان مـن طريـف بعـد أن أطلـت جنـوى، عـروس البحـر الأبيـض الشـمالية، إلا أن ذهـب إلى قمرتـه وتوضـأ وصـلى للـه عـز وجـل ركعتـين، شـكرا للـه تعـالى عـلى آلائـه ورحمتـه، وقـرأ سـورة يـس، ثـم صعـد إلى ظهـر السـفينة ليكحـل عينيـه بمـرأى مدينـة جنـوى الإيطاليـة الجاثمـة عـلى عـدد مـن الآكام المكسـوة بثـوب زمـردي مـن عشـب كان في أول نجومـه مـن الأرض، وقـد قامـت العـمارات الجميلـة الهندسـة فـوق تلـك التـلال كأنهـا عرائـس في ليلـة زفافهـا وقفـت عـلى ذلـك البسـاط السـندسي، الـذي وشّـمتْهُ يـد المصـور الأعظـم، تنتظـر عروسـها الـذي لم يكـن سـوى طريـف لتـزف إلى طرفـه وقلبـه بعـد أن حرمـا زمنـا طويـلا رؤيـة الطبيعـة الفاتنـة النابـض قلبهـا بالسـحر والجـمال.

تشـبه جنـوى في أيـار (مايـو) مدينـة يافـا الجميلـة في آذار (مـارس) مـن حيـث المنـاخ وفتنـة الربيـع، ولكـن يافـا وكل مدينـة أو قريـة عربيـة تبزّرهـا في جـمال الـروح لأن أهلهـا لا يتكلمـون إلا بالعربيـة المحبوبـة، ولا يرطنـون بالأعجميـة كسـكان جنـوى.

دخلت الباخرة ميناء جنوى الكبير صباحا تتهادى بدلال ورفق، فشعر صاحبنا، عندما وطئت قدماه اليابسة، بدم جديد فتي يدب في عروقه، وشجعه وصف رفيقه السيد. ف. لتلك المدينة الجميلة على التجول معه فيها، بعد أن أودعا حقائبهما في المحطة مؤقتا.

رأى طريف مدينة نظيفة تنبض بالحياة والنشاط، واسترعى نَظرة في وجوه (فترينات) كثير من المحلات التجارية خواتم الزواج المعدنية لاستبدالها بخواتم الزواج الذهبية التي حث الطاغية موسوليني شعبه على إهدائها إلى الحكومة، لتبني بأثمانها طائرات وأساطيل ودبابات تسلب بها حرية الشعب الحبشيّ الآمن، وتسيل دماء أبنائه أنهارا، إشباعا لأطماع زعيمها الذي أصيب بجنون العظمة، فراح يركب المدافع والدبابات والبوارج والشرفات ليخطب في شعبه المائنع الجبان، حاثا إياهم على بذل الأرواح في سبيل تشييد الإمبراطورية الرومانية وجعل البحر الأبيض بحيرة ايطالية.

لم يستطيع طريف أن يرى كيف يستطيع ذلك المهرج السيمائي أن يخلق من شعبه ذوي الأجسام المعكرونية، التي تتقصّف في ميادين الوغى هلعا ورعبا، رجالا يستطيعون التغلب على الأحباش البواسل. فالقلوب الجريئة لا يخلقها التهويش والخطب والأناشيد الماسية، والمعكرونة الجافة وإن بدت للعين صلبة لا تلبث أن تنكسر إذا غمزتها الأصابع.

رأي طريف بعين بصيرته أن تلك الخواتم الذهبية التي جاد بها الشعب الإيطالي للتسلح، إنما هي رصاصات ستسدد إلى صدور بني قومه العرب الرابضين في عرائنهم كالأسود على شاطئ البحر الأبيض الجنوبي والشرقي، إذا ما كتب لذلك المهوش النجاح في حملته الطائشة الظالمة على الحبشة الذبيحة، وتذكّر ما فعله حامي الإسلام بعمر المختار وصحبه - أبطال طرابلس الأشاوس -، فسأل الله العزيز الجبار أن يحبط مساعي ذلك الطاغية، ويهدم آماله وأحلامه، ثم قرأ للسيد ف. أبياته في. رثاء الشهيد عمر المختار الذي صلبه السنيور المجرم والتي جاء فيها:

ماعهدنا الطِّليان[1] ترعى رجالا قبل أن جاء من يُحصل ثَارُهُ

عُمرُ فارس القضاء أتاهم بنكال تضوّعت أخبارهُ

قد أرى ساكني الحذاء بأن الفـ ارسَ النّدبُ لا يشقُّ غبارهُ

ثم قرأ له أبياته التي قالها على أثر ثوران بركان فيزوف الأخير وهي:

فيزوفُ حَولكَ باتت منا النفوسُ تَطوفُ

لم يبق في العُرب إلا مُتيَّمْ ملهوفُ

على لَظاك عقدنا الآمـ ال يا فيزوفُ

ها روحُ نَيرونَ ظمأى قد أَعوزتها الحُتوفُ

[1] مفردها طلى، وهو الصغير من أولاد الغنم

أَتـونُ جوفـكَ فيـه		من الرزايا صُنُوف

ومِرْجَـل الأرض يغـلي		غَضبانُ، فيه رجوفُ

والنـابُ أفديـه أمـسى		له صدى وصَريفُ

* * *

فيـزوفُ، مـرآك تهـوى		نفسي وأنت نزيف

يا جـوف فيـزوفُ قـل لي		متى بروما تطيفُ

فيجرف السَّـيْل موسـو		ليني وتَفنى الألوفُ

فـسُرَّ بها صاحبه وشـاركه الدعـاء في قهر الظالمين وردُّ كيدهم إلى نحورهم.

ولمـا رأى السـيد ف. أن طريفـا لم يشـك النَّصـب رغـم المسـافة الطويلـة التـي مشـاها في شـوارع المدينـة، تشـجع فطلـب إليـه مرافقتـه لزيـارة مقـبرة جنـوى الفَنيّـة التـي تعـد أشـهر مقـبرة مـن نوعهـا في العـالم، فقبـل الشـاعر الدعـوة شـاكرا.

وعندمـا دخلهـا، وتجـولَ في أنحائهـا الشاسـعة. دهـش لمـا رأى مـن عجائـب في النحـت، إذ كانـت الجـدران الخارجيـة لغـرف المـوتى مزينـة بتماثيـل مـن المرمـر منحوتـة نحتـا آيـة في الفـن والابـداع. وهـي تمثـل الجنـة والحسـاب والرحمـة والملائكـة وكل مـا يتعلـق بالحيـاة الأخـرى. ولـكل أسرة مـن الأسر الشـهيرة الثريـة غرفـة تدفـن فيهـا موتاهـا.

بقـي طريـف في المقـبرة ثـلاث سـاعات يتنقـل مـن آيـة فنيـة إلى آيـة، دون أن يتـسرب إليـه الـكلال أو يشـعر كيـف تـصرّم الوقـت، ولـولا أن معدتـه أعلنـت احتجاجهـا عـلى نسـيانها والاكتفـاء بالغـذاء الروحـي لبقـيَ في الجَبانـة حتـى موعـد سـفر القطـار.

سـار طريـف في جنـوى عـلى قدميـه بضعـة عـشر كيلـو مـترا بعـد أن كان محظـورا عليـه في الأشـهر الأخـيرة السـير بضـع عـشرة خطـوة، وقـد أنسـاه جـمال المدينـة وآيـات الفـن في مقبرتهـا نفسـه، بحيـث لم يتذكـر أن لـه رئـة نزاعـة إلا بعـد أن جلـس في القطـار ميمـما برلـين دون مـا حاجـة إلى مـن يعاونـه في طعامـه وشرابـه وقيامـه وقعـوده كـما كان شـأنه مـع نسـيبه عندمـا تـركا القـدس آخـر مـرة إلى القاهـرة.

(٣١)

نـزل رفيقـه في سـويسرا مخلفـا إيـاه وحيـدا لا سـمير لـه ولا مؤنـس، وإن هـي إلا سـاعات حتـى شـعر صاحبنـا بالفـراغ العظيـم الـذي تركـه صاحبـه في نفسـه. وعندمـا بثـت الغزالـة شـعاعها في السـهول والنجـود، طـار السـبات مـن جفـون السـفر، وعـادت الحركـة إلى جـوف المركبـات وتجـاذب النـاس أطـراف الأحاديـث إلا طريفـا، فإنـه قبـع في ركـن الغرفـة مداهـما يفكـر في قـد يكـون سـجل لـه لـوح القـدر، وفي مـرارة الاغـتراب وشـدة وطأتـه عـلى رجـل حـي مريـض مثلـه.

دخـل القطـار الأرض الألمانيـة، وكل مـن فيـه يرطنـون بلغـات لم يفهـم طريـف منهـا كلمـة واحـدة، فضـاق صـدره وشـعر كأن كابوسـا ثقيـلا ران

عليـه فخـرج مـن الغرفـة يـذرع المركبـات الطويلـة ذهابـا وإيابـا وهـو ينـادي باللغـة العربيـة:

- كلمة واحدة عربية لله. أنقذوا هذا الغريب بصوت عربي. حنون يا هو! يا أبناء آدم! أما فيكم عربي واحد في هذا القطار المكتظة مركباته بالناس؟

كان طريف ينادي بصوته الجهوري، وعيون الرّكب جميعا شاخصة إليه مستديرة واستغراب، كأنما حسبوا أن به جنة. ولكنه لم يعرهم اهتماما ودأب في النداء. ولما يئس من وجود عربي غيره في القطار، تنازل عن عنجهيته العربية وراح يردد العبارات نفسها بالإنجليزية، فلم يرد عليه أحد، فرددها بالفرنسية ثم بالتركية فكان كمن يخاطب خُشبا ولسوء حظه أنه كان لا يعرف كلمة واحدة من إحدى لغات أوروبا الوسطى. ولما أعياه الجهد، وكاد صوته أن يُبَح، وعزيمته أن تخور، عاد إلى غرفته ليستريح، وقبل أن يصل إليها رأى عملاقا يمر به، ولم يكد يسير خطوة أمامه حتى سقطت به عن رأسه فاخترقت طبقات الجو العليا في المركبة، ولما وصلت إلى الآفاق السفلى رفع طريف يديه والتقفها من الهواء وأعطاها العملاق الذي قال له:

- دنكه[٢].

فاغتاظ طريف واحمرت عيناه غضبا للإهانة التي ألحقها به ذلك المارد، ولكنه رأى أن من الحكمة الإغضاء -- ولو خالف ذلك ما اعتاده

٢ معناها بالألمانية شكرا، والإنجليزية حمار.

مـن رد الإسـاءة أضعافـا مضاعفـة - خوفـا مـن معـاودة النـزف ووصولـه إلى المستشـفى مهشّـما.

عـاد إلى زاويتـه، ولهيـب الغيـظ والخيبـة يلهـب دماغـه، وظـل قابعـة فيهـا، حتـى إذا مـا أصبـح قريبـا مـن برلـين أخـرج رسـالة الأسـتاذ زاور بـروخ بشـأن قبـول طريـف في المستشـفى، وأراهـا للسـيدة الوحيـدة التـي كانـت جالسـة معـه في الغرفـة، فقرأتهـا وحدثـت طريفـا بالألمانيـة فلـم يفهـم منهـا كلمـة واحـدة، ولكنهـا أفهمتـه بالإشـارة أنهـا سـتدله عـلى المستشـفى. فابتسـم لهـا وهـز رأسـه شـاكرا. ثـم خيـم عـلى الغرفـة الصمـت الرهيـب.

(٣٢)

دخـل القطـار محطـة (أنهالـتر) في برلـين، فوجـد طريـف ضابطـين ألمانيـين يُصافحـان السـيدة التـي كانـت معـه وعـرف مـن أكبرهـما سـنا وكان يتقـن الفرنسـية، أنـه زوج السـيدة وأن الضابـط الآخـر ابنهـما الوحيـد، وكان في عمـر طريـف.

أبى عـلى السـيدة لطفهـا إلا أن توصـل صاحبنـا إلى المستشـفى فذهبـت معـه، عـلى أن تعـود إلى زوجهـا وابنهـا حيـث يقيـمان، وهنـاك أبـرزت للموظـف المسـؤول كتـاب الأسـتاذ زاور بـروخ فهـم طريـف مـن عباراتـه الرقيقـة، وابتسـاماته، وحركاتـه وسـكناته، أنـه يرحـب بـه أجمـل ترحيـب ويقـدم لـه أوفـر الاحـترام، تـم ذهـب معهـما إلى الجنـاح الفخـم الـذي حجـز لـه في إحـدى غرفـه الممتـازة سريـر مريـح.

كانت رئيسة الممرضات في انتظار الشاعر، وكان استقبالها له حارا جدا. وبعد أن أخذت منه حقيبته، أدخلته غرفة ذات سريرين، أحدهما خصص له، والآخر غير مشغول. وبعد أن اطمأنت عليه السيدة رفيقة السفر بالا، ورأت الترحيب الذي قوبل به، صافحته بحرارة. مودعة وانصرفت وفي عينيها دعاء حار لله ليشفي ذلك الغريب الصامت.

خرجت رئيسة الممرضات على أثرها. تم لبس طريف ثياب النوم وشرع في قراءة سورة يس. ولم يكد يتم قراءتها للمرة الثالثة حتى قرع باب الغرفة وولجته رئيسة الممرضات ومعها شاب في مقتبل العمر عليه سيما

الوجاهة والبراء، حيا صاحبنا بلهجة عربية مبينة قائلا:

- السلام عليكم.

فقفز طريف من مقعده وقال له بصوت حنون خرج من أعماق قلبه:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وإن هي إلا بضع ثوان رمى بعدها طريف نفسه على أخيه العربي معانقا، وراح يشم منه رائحة العروبة الزكية ويضمه إلى صدره كما تضم الأم وحيدها بعد عودته من معركة حربية دامية.

فوقفت رئيسة الممرضات ذاهلة مما رأت، ثم سألت السيد ح. ب عن نوع القرابة التي تربطه بطريف فأجابها:

- إنه أخي في العروبة.

فسرتها موجة السرور التي غمرت طريفة بعد أن دخل المستشفى ساهما مفكرا، وانشرح صدرها لما رأت ثم انسلت من الغرفة تاركة للأخوين العربيين جو الودّ الصافي والسّمر المستطاب.

كان الوجيه السيد ح. ب. من أسرة شهيرة في القاهرة، جاء برلين وأقام في مستشفاها بضعة عشر شهرا أُجريت له خلالها عدة عمليات جراحيه كتب له بعدها الشفاء. ثم غادر المستشفى وأقام في نزل في برلين، وصار يتردد على المستشفى مرة كل يومين لتغيير ضماد الجرح الذي كان على وشك الالتئام ولحسن حظ طريف، جاء أخوه العربي الليلة متأخرا عن موعده المعتاد، فمحا وجوده آلام الغربة من نفس الشاعر الكئيب.

فهم منه طريف أمورا وافية عن المدينة ومستشفاها العظيم الذي يكاد يكون وحده مدينة قائمة بنفسها، واستكتب ترجمة جمل عديدة إلى الألمانية بحيث لم يسلم صاحبنا زمام أجفانه إلى الثبات إلا بعد أن وعتها ذاكرته بدقة تامة جعلت رئيسة الممرضات في صباح اليوم التالي تقف مبهوتة عندما سمعت صاحبنا يكلمها بالألمانية بطلاقة ولفظ صحيح.

كان في الـدور الأرضي للبنايـة التـي حـل بهـا طريـف، مريـض ألمـاني فقـير يتقــن الانكليزيــة، اتفــق مــع الســيد ح. ب. عــلى الخــروج مــع طريــف إلى المدينـة ليريـه أهـم مـا فيهـا عـلى أن يدفـع لـه الشـاعر مـاركا واحـدا (خمســة قــروش) كل مــرة يســتصحبه فيهــا.

اشـتري طريـف جميـع مـا يلزمـه، واشـترى عـدة روايـات انجليزيـة وفرنسـية، ومُعجـما مـن الانكليزيـة إلى الألمانيـة، ومـن الألمانيـة إلى الانجليزيـة، وكتابـا ممتـازا للمحادثـة الانكليزيـة - الالمانيـة أعانـه كثـيرا عـلى التفاهـم مـع القـوم هـذاك، بحيـث أسـتنجد بـه أحـد الأطبـاء بعـد وصولـه أي (وصـول طريـف) إلى المستشـفى باثنـي عـشر يومـا ليكـون ترجـمان بينـه وبـين أجنبـي أوروبي مـر عـلى وجـوده في المستشـفى سـتة أشـهر دون أن يتمكـن مـن التحـدث إلى القـوم بلغتهـم، الأمـر الـذي كان دعايـة طيبـة للعـرب في بـلاد وضعهـم زعيمهـا في المرتبـة الثالثـة عـشرة بـين أمـم الأرض، والأيـام وحدهـا هـي التـي سـتظهر الحقائـق ناصعـة، وسـيدحض المجـد الـذي سـيقتنصه العـرب مـن بـين أنيـاب الزمـان كل تخـرص وافـتراء، وإن غـدا لناظـره قريـب.

(٣٣)

فوجـئ طريـف في صبـاح أحـد الأيـام بحركـة غـير عاديـة في المستشـفى، فالأطبـاء والممرضـات في نشـاط عجيـب وعمـل مسـتمر، والنظافـة جلسـت كل شيء في ذلـك الـدور حتـى أرضـه كأنهـا صفحـة مـرآة مجلـوة، والمـرضى طلـب إليهـم البقـاء في أسرتهـم ولمـا سـأل عـن السـبب قيـل لـه؛ إن الجـراح العظيـم زاور بـروخ سـيشرف ذلـك القسـم بزيارتـه في العـاشرة صباحـا.

في العـاشرة تمامـا، أقبـل الجـراح الأكـبر يتبعـه عـدد مـن أشـهر جراحـي الألمـان والأجانـب، وتلطـف فحـادث كل مريـض بضـع ثـوان مـع أن معظمهـم مـن عظـاء العـالم وأثريائـه، مـا عـدا طريفـا فإنـه جلـس عـلى سريـره وباسـطه وحادثـه بضـع دقائـق باللغـة الانكليزيـة وقـال لـه:

- لا تفكـر في شيء إلا فيـما سـتعمله بعـد نجـاح العمليـة، ثـم التفـت إلى الرئيسـة وقـال لهـا:

- سَـمِّنيه جيـدا، وكونـوا جميعـا كأنكـم أهلـه، واكسـبوا صداقتـه فَعـداوة الشـعراء بئـس المُقتَنـى.

ثـم صافـح طريفـا بحـرارة وهـزّ يـده كأنـه في قـوة السـيد نُصـير، مـع أنـه كان في الحاديـة والسـتين مـن عمـره، وخـرج يمـشي كـما يمـشي الماريشـال يتبعـه أركان حربـه.

لم يكـد عميـد الجراحـين يغـادر البنايـة مُودعـا بـكل إجـلال، حتـى تدفـق الأطبـاء والممرضـات عـلى غرفـة طريـف يهنئونـه بالـشرف العظيـم الـذي نالـه بجلـوس الأسـتاذ زاور بـروخ عـلى سريـره والتحـدث إليـه طويـلا وقـد قالـت لهـم رئيسـة الممرضـات:

- لم يكتف بالتحدث إليه، بل ابتسم له أيضا.

ولم يكـد طريـف يسـمع ذلـك، ويـرى الدكتاتوريـة تثبـت وجودهـا في المستشـفى، المـكان الوحيـد في العـالم الـذي لا يصـح أن تفـارق فيـه الابتسـامة أفـواه الأطبـاء، واللطـف حديثهـم، انفجـر في القـوم مؤنّبـا ناسـيا

أنه غريب بيهم وقال: «عجيب أن أراكم تستكثرون عليّ ابتسامة من انسان مثلي ومثلكم، فالأطباء عندنا بسماتهم شفاء المرضى».

فوافقه أحد الأطباء على صحة ملاحظته وقال:

- نحن معشر الألمان قد تغلغلت الروح العسكرية في دمائنا، وهيهات أن نتجنبها بسهولة.

ثم خرجوا من الغرفة دون أن يستاؤوا من عبارة طريف، فقال وقد رفع يديه إلى السماء:

- رب لا تُمتني إلا مبتسما.

(٣٤)

رأى طريف على باب إحدى الغرف كلمة (bad) مكتوبة فتشاءم منها وصار كلما مر بتلك الغرفة، أسرع الخطى لئلا يَزجّوه فيها حيث يلاقي نهايته. فكلمة (bad) معناها بالإنكليزية رديء ولا تكون رديئة إلا إذا كانت للموتى أو المُحتضرين.

وكم كانت دهشة صاحبنا عظيمة، وقد طلب أن يهيأ له الحمام، حين هَدته الممرضة إلى تلك الغرفة، وظهر له أن (bad) معناها بالألمانية حمام. ومنذ ذلك اليوم أصبحت تلك الغرفة محببة إلى نفسه، تزوده بالنشاط والصحة، وتمنى أن يكون كل (bad) في هذه الدنيا من ذلك الطراز.

(٣٥)

أثبت المختبر والأشعة إصابة طريف بالكيس الطفيلي في رئته اليسرى، فأخبر أن العملية الجراحية ضرورية لإزالة الكيس، وأنها خطرة جدا، والأعمار بيد الله، ولكن عليه اختيار المكان الذي يجب أن يدفن فيه إذا قضى نحبه - لا سمح الله - على أثر العملية التي سيجريها له الجراح الأعظم الأستاذ زاور بروخ نفسه.

فلم يضطرب طريف لذلك النبأ، إذ أصبح ذكر الموت أمرا مألوفا لديه لكثرة ما سمع من الأطباء عن دنو أجله وانقطاع الأمل في شفائه. لكنه احتاط للأمر فكتب إلى أهله وأصدقائه عشرات الرسائل بدون تاريخ ودعهم فيها ويخبرهم أنها سترسل إليهم بعد أن يقضى نحبه، ويوصيهم خيرا بولديه وأن يباع أثاث بيته وكتبه ويُعطى الثمن لمن تلطفوا فأقرضوه. وكتب إلى ولديه يوصيهما بتقوى الله، والتفاني في حب الوطن، وخدمة اللغة العربية. وكتب رسائل أخرى دون تاريخ أيضا، يبشر فيها الأهل والصحب بنجاته من الموت. وضع على الغلافات الأولى علامة حمراء وترك الغلافات الأخيرة بدون علامة وأوصى طبيبة جراحة بإرسال الأولى إذا وقع المحذور، والثانية إذ كتب له الشفاء.

ثم ذهب مع المريض الألماني إلى السوق فقاس نفسه في تابوت خشبي دفع عنه عربونا على أن يسترد إذا كتب له الشفاء. ثم ذهبا إلى مكتب للسياحة اتفقا معه على إيصال التابوت إلى ميناء حيفا خلال مدة لا تزيد عن أربعة أسابيع. فإذا قُيِّض له الشفاء استرد المبلغ المدفوع،

وإلا دفع صُندوق المستشفى الذي أودع طريف لديه دراهمه الأجرة الباقية. ثم قفلا راجعين إلى المستشفى حيث تناولا طعام الغداء ثم ناما قليلا وخرجا بعد ذلك إلى السينما. وعندما عادا في المساء تناول طريف طعام العشاء بشهية عجيبة، وقرأ عشرا من آي الذكر الحكيم، ثم ذهب إلى فراشه لينام فلم يستطع لأن الشعر جاش في نفسه وتملكها فلم يستطع منه فكاكا، وأخذ قلمه المدّاد وشرع في النظم. وبينما كان سابحا في ملكوت الشعر إذا برئيسة الممرضات تدخل غرفته وبيمناها ابرة مورفين لتخدير أعصاب صاحبنا، وحمله على النوم خوفا من أن يؤرقه التفكير في مصيره، فيُضني الأرق جسمه، ويزداد بذلك الخطر عليه عند إجراء العملية.

رجاها طريف تأجيل التخدير ساعة يتمم فيها ما شرع في نظمه فأبت لأن الحياة العسكرية كانت قد تسربت إلى الممرضات الألمانيات أيضا. فما كان منه إلا أن قام وأطلع الطبيب بالهاتف على رغبته، فأجابه إليها وكلم الرئيسة بذلك فأذعنت لإرادة الطبيب وعاد كل إلى غرفته.

أتم طرف نظم ما يلي بسرعة واثقة، ولم يغير في الأبيات حرفا واحدا ليبقي عليها طابع السرعة والظروف العجيبة التي أحاطت به قال:

إذا ما الدهر أسرف في التعدّي		وتجاوز في نضالكَ كل حدٍّ

وسدد نحو صدرك كل داء		عُضال قمعُه هيهات يُجدي

وزجك في ظلام الوهم حتى		يكاد يُرى إلى الأخرى يُؤدي

وأسـلمَك الأُسـاة فثّمَ جَزْرٌ   من الآمال لم يُردف بمدٍّ

فعُـد باللـه مـما أنـت فيـه   تفز حتما على الخصم الألد

ولذ برسـولهِ فخر البرايا   يبدل حنظل الدنيا بشـهدِ

أجرني يا رسـول الله إنّي   أتيتك والضنى قد فلّ حدي

غدا يقتات من صدري سـلاحٌ   يقدّ من الأضالع أي قدٍّ

سـل مولاي باري الخلق كيمْا   يبدل شـقوتي الجُلّى بسـعدِ

ثم قال:

غـدا يُغمد الجرّاحُ في الصدر مبضعا

ويظهـر ما قد خُطّ في لوحة القَدَرْ

فـإن متُّ، سرّ ابن الضلوع بما

قـضى المهيمن فالفردوس فتّانة البشرْ

تطـوف بها الحور الكواعب ينتشى

بهن وحيدُ الصدر والسـمع والبصرْ

لهـن قدودٌ كالغصون تمايَلَت

فطـوبى لمن ضمّ الغصون ومن هصرْ

وان عشـت لم يذهب بأحلامي الرّدى

فأهـلا بها دنيا، وأهلا به عُمرْ

فـما في الدنيا إلا مفاتن جمة

خريـرُ مياه الواد والغيدُ والزّهرْ

وسـحر تغاريد البلابل هل تري مثيلا

لإيقاع البلابل في السـحرْ

وهمسٌ شـجيٌّ إذ يبوحُ بحبُه

نسـيم الصبا فجرا إلى ورق الشجرْ

وآيـات إلهام يصيخ لها الدُّجى

أناجى بها النجم المسـهّدَ والقمر

وعـزف جناني لحنَ حُب مخلدِ

تـردده أضلاع صدري والوترْ

ورشـفُ المُنى معسولة لا يعيبها

سـوى أنها غراء كالصُبح إذ سفرْ

* * *

يقولونَ ما للشـاعر الحر باسما

أليـس غدا ظهرا يحيقُ به الخطرْ؟

ويضجـعُ أياما يهاجمه رَدى

عَتـيٌّ يروعُ الكون بالنابُ والظفرْ

أيهـزأ منه والام إذا وَرتْ

مـن الغل عيناه يبيد ولا يذرْ؟

قليـلا من الانصاف يا قوم ما الذي

سـأجنيه إن أخلدتُ بالهم والكدرْ

وأذريته دمعا سـخينا يُمدُّه

فؤادي بودق أحمر اللون مُسـتَعرْ

وحطمـت أعصابي من الخوف والأسى

وأصبحـت كالأموات والأفق انفطرْ

أليـس قضاء الله يفعل بالملا

كـما بالهوادي يفعل الصارم الذكرْ؟

* * *

سأترع صدري بالهناء وبالمُنى

وأمعن في رشف المدامة والسمرْ

وأَترُكُ للدنيا العبوس ابتسامتي

فما قهر الدنيا سوى عاقل سَخَرْ

وألم أزهار الربيع تطوقت

بقطر الندى سمطا من الدرما انتثرْ

واذهب ريان الفؤاد منعما

إذا كان باقي العمر كالزهر مختصرْ

رجاء يا صحبي ابسموا احول حفرتي

وجودُوا على المرحوم بالطيب والزهرْ

ثم قرأ سورة يس وغمز الجرس فجاءت الرئيسة واعطته المخدر فنام نوما عميقا لو لم تُنبهْهُ منه ممرضة الصباح لظل راتعا في عالمه الحافل بالرؤى والخيالات.

(٣٦)

ذهب إلى غرفة العمليات بعد أن قرأ سورة يس ثلاث مرات، وآية الكرسي سبع مرات، والصمادية مائة مرة. تم حمل على محفة ذات

عجلات إلى بناية الأشعة حاملا بيده نسخة صغيرة جدا من القرآن الكريم. وهناك التقى بالطبيب العربي اللبناني الدكتور هنري شاوول أعظم مخترع لأجهزة الأشعة في العالم. تخرج في كلية الطب

بالجامعة اليسوعية ببيروت عام ١٩٠٩م. ثم ذهب إلى برلين حيث أتم دراسته، وتزوج بسيدة ألمانية وعاد بعد ذلك إلى القاهرة ثم طلبته الحكومة الألمانية ليرأس قسم الأشعة في أعظم مستشفى لديها. فلبى الطلب وأدار قسم الأشعة إدارة ممتازة وأتحف العالم باختراعات جعلته يتسلم الذروة بين عباقرة العِلم.

هفا له قلب طريف وكان سروره به كسروره بأخ له لم يره منذ أعوام، وخاصة حين كلمه بالعربية، وقال له بعد أن وضع دائرة على ظهره تشير إلى مكان الكيس:

- اطمئن بالا، ستنجح العملية لأنك نجحت في الوصول إلى أعظم جراح عرفه تاريخ الطب.

فأجابه طريف والاطمئنان باد على محياه:

- شكرا يا دكتور. إن يدك العربية المباركة التي لمست موضع الكيس من ظهري بشرتني بالنجاة من هذا الكيس.

ثم ربَّت الدكتور كتف طريف برفق وقال له:

- اذهب الآن إلى غرفة العمليات وليرعك الله بعنايته.

لم يكد طريف يدخل غرفة العمليات حتى أقبل عليه طبيب ملثم أسمر اللون وقال له بلهجة فيها فخامة أعجمية:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله. هل تحسن الحربية يا دكتور؟

فأجاب بالفرنسية:

- أنا طبيب إيراني، لا أحسن العربية، وإن كنت أحفظ قسما كبيرا من القرآن الكريم.

- وماذا تصنع هنا؟

- أتمرن على الجراحة، وسأبقى هنا ثلاث سنوات أعود بعدها لممارستها في مستشفى طهران.

وبينما كان طريف يهم بإلقاء أسئلة أخرى على الدكتور الايراني، إذا بالجراح الكبير البروفسور (W. Fick) ساعد الأستاذ زاور بروخ الأيمن يقتحم الغرفة مرتديا ثيابا بيضاء كأنه ملاك أرسله الله إلى طريف ليُعينه في المعركة الحاسمة بينه وبين الموت. ويحيي مبتسماُ ثم يبدأ بتخدير صدر المريض الأيسر تخديرا موضعيا بغرزه إبرة المخدر في صميم أعصاب الأضلاع. ولما رأى أن المريض لا يصرخ من شدة الألم الذي يحدثه غرز ابرة في العصب، انتابته الحيرة لأن ذلك يدل على أمرين لا ثالث لها، فإما أن تكون الابرة قد أخطأت الهدف وهذا يكاد يستحيل على جراح عظيم مثله قضى بضعة وعشرين عاما يجري

أعظم العمليات الجراحية وأشدها خطرا بنجاح كبير، وإما أن تكون أعصاب صدر طريف قد شذّت عن أعصاب الناس جميعا وحلت مكان آخر، وهذا أيضا ضرب من المستحيل. ولما أعيته معرفة السبب سأل طريقة قائلا

- ألم تُصب الإبرة العصب؟

- بلى. أصابته في الصميم.

- عجبا. كيف لم تؤلمك؟

- ومن قال لك إنها لم تؤلمني؟

- سكوتك التام، وعدم لجوئك إلى الصراخ كما يفعل جميع المرضى.

- نحن العرب يا دكتور يثلم رجولتنا إظهار الألم والتوجع منه. فهز الجراح رأسه دهشة وإعجابا تم مضى في إتمام التخدير.

بعد انتهاء التخدير الموضعي بمدة وجيزة، درجت عجلة المرضى بطريف إلى حيث كان الجراح الأعظم زاور بروخ في الانتظار، وحوله عدد من كبار الجراحين العالميين الذين راموا مشاهدة الطريقة التي سلخ بها ذلك الكيس الضخم من صميم الرئة.

دخل طريف يقرأ الصمدية هادئا مطمئنا، وكفه اليسرى مطبقة. على القرآن الكريم، حتى إذا وصل إلى حيث يقف الجراحون ألقى عليهم تحية الصباح ثم سلم أمره إلى الله وتَشهَّد.

تقـدم الأسـتاذ زاور بـروخ منـه وشـد وثاقـه وهـو جالـس إلى منضـدة، الجراحـة ثـم أقحـم رأسـه في جهـاز خـاص لتكييـف التنفـس مـن اخـتراع زاور بـروخ أطلـق عليـه اسـمه، ومـد ذراعـه اليـسرى بحيـث شـكلت مـع جنبـه الأيـسر زاويـة منفرجـة وطلـب إلى طريـف أن يفتـح كفـه فرفـض قائـلا:

- إني أحمـل فيهـا القـرآن الكريم ولا اطمئن بالا إذا انتزع مني.

- حسـنا أبقه في راحتك ما دمت تؤمن بفائدته.

- كل الإيمـان. ثـم راح يجـري مشرطـه في ظهـر المريـض الأيـسر بسرعـة عجيبـة..

وكان مسـاعدوه يجـدون صعوبـة جمـة في مجاراتـه في سرعتـه النـادرة مـن حيـث أخـذ الآلات مـن يـده وتزويـده بغيرهـا. وبعـد قليـل شـعر صاحبنـا بعظـم أضلاعـه يقـرض دون أن يشـعر بـألم فتلبـث هنيهـة ثـم سـأل الجـراح بالألمانيـة:

- كـم ضلعا قرضت يا دكتور؟

فأجابه بلهجة عصبية:

- صـهْ. أرجـوك ألا تعـود إلى الـكلام مطلقـا لم أعـرف مريضـا قبلـك في حيـاتي تكلـم أثنـاء العمليـة.

وأخلد طريف إلى السكوت المطبق وراحت الآلات تتحدِّث صدره دامت العملية ثمانين دقيقة ثم انتقل الجراح إلى مريض آخر وبقي الاستاذ (Fick) يضمد صدر طريف. وبعد الانتهاء من التضميد أخبره بصراحة أنه أزيلت له ضلعان (ثمانية عشر سنتيمتر من كل ضلع)، وأنه في حاجة إلى عملية ثانية لإزالة الكيس، لأن الأستاذ زاور بروخ لم يجد التصاقات بين الرئة وغشائها كما قال الطبيب المقدسي، فاضطر إلى وضع البرافين بين الرئة وغشائها ليحدث التصاقات اصطناعية خلال خمسة عشر يوما ثم تجرى العملية الثانية والأخيرة.

تألم طريف كثيرا لما سمع، ولكنه لم يقل شيئا لأن المصائب والآلام العديدة علمته كبت العواطف وترقب صنوف الأرزاء وسلم أمره إلى من يحيى العظام وهي رميم.

(٣٧)

أقام طريف ثلاثة أيام في الردهة السفلى لبناية العمليات الجراحية كان بعض المرضى خلالها يموتون واحد إثر آخر بعد العمليات الخطرة التي أجريت لهم. وكان إلى جواره رجل نمساوي يعرف بضع كلمات فرنسية تبدو لطريف كأنها ألغاز لفهاهته. وأكثر ما أغاظ صاحبنا منه مخاطبته إياه بقوله - (مسيو لابروفسور) أي يا سيدي الاستاذة. ولولا انتقاله إلى رحمة الله لحياه طريف في مذكراته هذه بعبارتين جافتين. غفر الله له وأذاقه في الأخرى شر الأنوثة التي وصم بها جاره العربي.

ثـم نقـل طريـف إلى غرفتـه الأولى بعـد أن قيـل لـه إن خطـر العمليـة الأولى قـد زال وبعـد أن أرسـلت برقيـة إلى أسرتـه بنجـاح العمليـة وأردفـت بالرسـالات التـي كتبهـا مبـشرة بـذات.

كانـت زوج الدكتـور ح. و. الألمانيـة قـد وصلـت يـوم اجـراء العمليـة لطريـف مـع وحيدهـا إلى برلـين حيـث أسرتهـا وعندمـا اسـتفسرت تليفونيـا عـن صحـة طريـف قيـل لهـا إنـه في حالـة خطـرة جـدا، والأمـل في شـفائه يـكاد يكـون مفقـودا.

أبرقـت إلى زوجهـا بذلـك، حـضر مـن السـويس إلى القاهـرة وأخـذ ولـدي الشـاعر وأمهـما ابنـة أخيـه معـه إلى السـويس لينقـل إليهـا نبـأ وفـاة الشـاعر بأسـلوب يخفـف شـدة الصدمـة نوعـا مـا وكـم كانـت دهشـته شـديدة حـين كلّمـه أخـوه حمـو طريـف بالتليفـون في اليـوم التـالي ينبئـه بوصـول برقيـة طريـف المبـشرة بنجـاح العمليـة، فـأسرع إلى ابنـة أخيـه وولديهـا وزف المهـم البـشرى وأخبرهـم ببرقيـة طريـف وكيـف أن اللـه سـبحانه وتعـالى لطـف بـالأب الغريـب وأنقـذ حياتـه رأفـة بولديـه.

(٣٨)

كانـت الآلام شـديدة جـدا، وكان يشـعر أن فـوق ظهـره جبـلا يـكاد يحطمـه. ولـولا إبـرة المورفـين بـين آونـة وأخـرى وتخفيفهـا آلامـه مؤقتـا لنحـر صاحبنـا نفسـه مـن شـدة الألم.

أحسـن اسـتغلال فوائـد إبـرة المورفـين أيّمـا إحسـان؛ إذ كان بعـد كل إبـرة يسـطر رسـالة لوالدتـه وأسرتـه وصحبـه يطمـئن بالهـم فيهـا عنـه، مـع أنـه كان في صميـم نفسـه يعتقـد أن بقـاء الحيـاة مـع وجـود تلـك الآلام ضرب مـن المسـتحيل.

وبينـما كان يخـط رسـالة لوالدتـه عـصر اليـوم السـابع لإجـراء العمليـة، إذا ببـاب غرفتـه يفتـح وتلجـه سـيدة في الثمانـين مـن عمرهـا عليهـا سـما المهابـة ووقـار الشـيخوخة. وخلفهـا زوج الدكتـور ح.و وابنهـا أحمـد، فجـن بهـم قلـب صاحبنـا سرورا وردَّ تحياتهـم بأحسـن منهـا ولم يتمالـك حبـس دمـوع الغبطـة عـن الإفـلات مـن مآقيـه، وحمـد اللـه، أن هيـأ لـه وجـود تلـك الأسرة النبيلـة في برلـين في أحـرج أوقـات حياتـه وهـو أحـوج مـا يكـون إليهـا. وخاصـة بعـد سـفر السـيد ح. ب. إلى سـويسرا.

كانـت السـيدة الكبـيرة جـدة السـيد أحمـد لأمـه. ولمـا كانـت لا تعـرف العربيـة اسـتأذنها طريـف في التحـدث إلى ابنتهـا وحفيدهـا بالعربيـة، فسـمحت وراح يتكلـم مـدة طويلـة بحيـث نـسي آلامـه، ونـسي أن يطلـب إبـرة المورفـين التـي كان يطلبهـا دائمـا بإلحـاح قبـل حلـول موعدهـا. وقـد نقلـه حديـث السـيد أحمـد مـن برلـين إلى البـلاد العربيـة، فسـبح في خضـم مـن الأحـلام اللـذة المنعشـة، وخاصـة عندمـا حدثـه عـن والديـه وصحتهـما وضروب الألعـاب التـي طلبهـا نـزار مـن أبيـه، حمـد اللـه عـلى ذلـك، وآلي ليحملـنَّ إليـه وإلى أختـه كل مـا يقـدر عـلى نقلـه إذا كتـب لـه الشـفاء.

بعد خروج الضيوف الكرام عاود طريف الألم فاستنجد بالمورفين لتسكينه، وساعده على ذلك ما بقي في ذاكرته من صدى الحديث الحلو عن ولديه الحميمين.

(٣٩)

أخذ طريف إلى غرفة العمليات من أجل العملية الثانية بعد انقضاء خمسة عشر يوما على العملية الأولى. وقد استغرقت العملية ساعتين نزفت عروقه خلالها كثيرا، وانصب قسم من الدم في القصبة الهوائية فتخثّر وسَدّ أنبوبها إلا قليلا، وكان الجراح آنذاك يسلخ من الرئة آخر جزء من الكيس مجاور للقلب، وأقل حركة في الرئة تعرض القلب لحد المبضع وهذا معناه الموت المحتّم العاجل. ولكن طريق لم يطق الموت اختناقا فصاح بالألمانية:،

- أريد السعال. أريد السعال.

وإذا بصوت الأستاذ زار بروخ يجلجل في الردهة كأنه الرعد:

- لا تسعل. لا تسعل..

قطع الهلع أنفاس المريض الذي نهكت قواه، وراح الجراح الأكبر - لله دره - يعمل على سلخ القسم الأخير من الكيس بسرعة البرق الخاطف، وإن هي إلا ثوان حتى انتهى من مهمته وقال المريض:

- يمكنك أن تسعل الآن.

ولكن صاحبنا لم يسعل، لأن قواه خارت فلم يستطع حراكا، وكاد قلبه يتوقف عن الخفوق. فما كان من الجراح الذي أقلقه إخلاد المريض إلى السكون المطبق، إلا أن أمال جذع طريف فتدفق الدم المتخثّر من فمه، وعادت رئتاه إلى التنفس الضعيف، وقلبه إلى النبض الواهن، وقد بذل جهد الجبابرة لإبقاء أصابعه منضمة على القرآن الكريم خوف سقوطه منها على الأرض.

تم أخذ إلى غرفة ذات سرير واحد خاصة بالمرضى الذين يخرجون من غرفة العمليات بحالة خطرة جدا، يتردد عليها الجراح الأكبر ومساعدوه ليل نهار مرارا، مجتمعين ومنفردين، وفيها ممرضة للنهار وأخرى لليل لا تفارقان الغرفة أبدأ.

شعر طريف بجفاف شديد جدا في حلقه سببته الكمية الكبيرة من المخدر الذي أعطيه قبيل العملية الثانية، وكل ما صنعوه لنقع غلته هو قطنة معقمة مغموسة بسائل ذهبي مثلج - قيل له فيما بعد إنه شمبانيا - كانت الممرضة تمسح بها شفتيه الصاديتين بين آونة وأخرى دون أن يرى طريف في ذلك أي جدوى. فما كان منه إلا أن انتهز غفلة من الممرضة، ومد يده الهزيلة الرعيشة إلى كأس الشمبانيا وأفرغها دفعة واحدة في جوفه الملتهب، فنزلت بردا وسلاما عليه، وشعر بالحياة تدب إلى قلبه المنهوك فيخفق بسرعة وقوة، والدفء يتسرب إلى عروقه كافة. أما الممرضة فعند ما التفتت، ورأت الكأس فارغة وقف شعر رأسها رعبا، وجحظت عيناها هلعا، وكاد صوابها يطير ثم سألت طريفا بعصبية متأججة:

- ماذا صنعت بكأس الشمبانيا؟

فبوغت طريف بما سمع وسألها بغضب.

- هل كان فيها شمبانيا؟

فقالت ساخرة:

- لعلك تريد أن تقول إن ما جرعته ليس إلا شايا مبردا يا حضرة....

- سامحك الله. لو فرضنا أنني قضيت نحبي اليوم رغم أنفي فهل ألقى وجه ربي وأنا سكران؟

- لا يموت أحد عندنا إلا سكران.

- وهل أنا في خمارة؟

- أنسيت سكرة الموت؟ أبعد الله عنك شره... فسكت وردد في نفسه قول أبي نواس:

فما لك من سكرين من بُدٌّ.

(٤٠)

بعد يومين من إجراء العملية الثانية اشتد الخطر على طريف ليلا، فاستنجدت الممرضة بالطبيب، فأتى مهرولا ولا حتى إذا ما جسّ النبض بأنملته، اضطرب وأسرع بإعطاء المريض إبرة مقوية للقلب لأن نبضه كان يتقطع، والنفس أوشك أن يخمد.

واصل الطبيب اسعافاته حتى مطلع الفجر ثم قر في أذن الممرضة كلاما وذهب لينام قليلا. أما طريف فلا يعرف نفسه أكان نائما أم مسهدا لأنه يذكر أن الطبيب كان ممسكا برسغه لجس نبضه، وأنه نقط له في فمه سائلا لم يحس له طعما. ويذكر أنه رأى أشباحا متشحة بثياب بيض تتنقل في فضاء الغرفة جيئة وذهوبا كأنها تسبح فيه، وسمع أصواتا كأنها أصداء آتية من فج عميق تقول له: «تشجع وتوكل على الله». وبعد ذلك شعر أن البرودة راحت تغزو أطرافه قليلا قليلا، وأن غشاوة رقيقة سوداء قد أسدلت على عينيه برفق وهدوء، فأراد أن يتشهد فأحس كأنه ألقم حجرا كبيرا لم يستطع معه تحريك لسانه بالشهادتين إلا بعد ما بذل جهودا جبارة مرهقة. ثم حاول رفع شاهديه فاستطاع بعد لأي، وخيل إليه أنه يعمل عليهما طودين عظيمين.

أما صدره فقد شعر كأن حجري رحى قد وضعا فوقه وراح أعلاهما يدور طاحنا البقية الباقية من عمره القصير.

وبينما كان على تلك الحال، شعر بيد صغيرة تمس أطرافه فترد إليها الحرارة، ثم تمر بها فوق صدره فتزيح عنه حجري الرحى، وتمس شفتيه فتحل عقدة لسانه، ثم ترتفع ببطء إلى عينيه فتزيل الحجاب المنسدل عليها في فيفتحهما، ويخيل إليه أنه رأى ابنته تخرج بسرعة من نافذة الغرفة ولا تعود.

وسمع طريف بعد ذلك الممرضة المتحسسة نبضه تقول لنفسها بالألمانية: «حسن، حسن» ثم يدخل الجراح العظيم نفسه مضطربا

فيسـألها بصـوت منخفـض ألمـا يمـت بعـد فأجابتـه هامسـة.

- أرى نبضه في تحسـن.

فأقبـل عـلى طريـف وجـس نبضـه فانبسـطت أسـاريره وربَّـت خـده قائـلا: «تحسّـن عظيـم». ثـم التفـت إلى الممرضـة وطلـب إليهـا ابرتـين أعطـاه إياهـما في عضلـه في فـترة نصـف سـاعة وخـرج مبتسـما.

بعـد مـرور ثلاثـة أيـام عـلى ذلـك الحـادث المرعـب جـيء بعجلـة المـرضى فنقلـت طريفـا إلى غرفتـه الأولى بعـد أن بـشروه بـزوال الخطـر نهائيـا عنـه.

(٤١)

بـدأ طريـف يسـترد قـواه بالتدريـج، وأصبحـت شـهيته للطعـام أعظـم مـن أن توصـف، وغـدا يـرى كل شيء في الحيـاة جميـلا محببـا إلى قلبـه. أمـا تلـك الموجـة مـن التشـاؤم التـي كانـت تكتسـح تفكـيره، فقـد اسـتبدلت بشـعلة نـيرة مـن التفـاؤل لا قبـل للدهـر نفسـه بإخمادهـا أن يخمـد المـوت أنفاسـه، وتنـاسى كل مصيبـة ألمـت بـه مـن قبـل، وعـدَّ نفسـه كأنـه خلـق خلقـا جديـدا، لـه عقـل جديـد ونظـرة إلى الحيـاة جديـدة.

كانـت آلام مـا بعـد العمليـة الثانيـة أشـد وطـأة مـن آلام الأولى لعمـق الجـرح وعظمـه، ولـولا المورفـين الـذي كان يسـكن تلـك الآلام المبرحـة، لاجتاحـت صاحبنـا عاصفـة مـن اليـأس تحملـه عـلى إلقـاء نفسـه في أحضـان المـوت الـذي عـانى تلـك الألآم الشـديدة تخلصـا منـه.

وكانت الفترة بين الإبرة والابرة تطول يوما بعد يوم لكي يوقفوها في النهاية خوفا من أن يعتادها مريضنا فلا يستطيع من أسرها فكاكا.

اشتهر طريف في المستشفى بمفاخرته بعروبته؛ فإذا قال الألماني مرة: «نحن الألمان». قال له طريف: «نحن العرب» مائة مرة. وقد حمل ذلك الاعتزاز بالعروبة أحد مساعدي الجراح الأكبر على التذرع بحب طريف لقومه لإيقاف إبر المورفين التي كان يحن إليها حنين الأم إلى وليدها. والفراشة إلى السراج، فقال له:

- أتعدني بالكف عن طلب المورفين؟

- أنا متألم جدا يا دكتور ولا أستطيع الصبر عنه لأنه يخفف عني آلامي.

- أنسيت ما قلته لنا من أن الرجل العربي إذا تضجر من الألم ركبه العار؟

لم أنس يا دكتور.

- إذن هات يدك وعدني وعد عربي بأن تستغني عن المورفين لتسكين آلامك ابتداء من صباح الاثنين (أي بعد ثلاثة أيام).

- بل من الآن وهذا وعد عربي.

وقد تجرع صاحبنا كثيرا من الآلام الشديدة للبر بوعده، وتمنى ولم يَعد، ولكن سبق السيف العذل.

(٤٢)

عرف الجراح الأكبر بما أخذ به طريف نفسه من الامتناع عن المورفين فجاءه عائدا ومهنئا بقوله:

- أهنئك على قوة إرادتك.

- هذا أمر بسيط يا حضرة الدكتور فبين قومي العرب من يقدم على تحمل آلام عملية جراحية مثل عمليتي دون مخدر ودون أي شكوى من الألم.

- هذا جديد على.

- لقد لطخ المغرضون اسم العرب بدعاية مضلة مزيفة، ولكن الأيام ستظهر الحقيقة ناصعة وتجعل ذكر العرب الماطر ينتشر في آفاق هذا العالم جميعها، وحديث بطولتهم وتفوقهم في مضمار الحضارة يدوي في أرجاء الكرة الأرضية.

- ليس هذا بعيد عليهم إذا كانوا مثلك حماسة لقوميتهم.

- إنني أقلهم وزنا، وأضعفهم إيمانا وإرادة.

- إنني مدين لك بإعطائي هذه الحقائق القيمة عنهم.

- كما أنني مدين لك بحياتي ولن أنسي فضل نبوغك وعبقريتك في الجراحة على.

- إن الفضـل في نجاتـك يعـود إليـك وحـدك. فالطـب بعـد أن قـام بواجبـه كاملا وقـف مكتـوف اليديـن، ولـولا قـوة إيمانـك، وارادتـك الحيـاة لسـكنت الآن في عـداد الأمـوات فـإذا تعادلـت قوتـا المـوت والحيـاة في الانسـان، كـما حـدث لـك حـين لم تكـن حـي فترجـى، ولا ميتـا فنـي، فـإن الارادة هـي التـي تقـرر المصـير. فالجبـان الرعديـد يقـضي نحبـه، والشـجاع الصنديـد الـذي لا يهـاب المـوت وتقاومـه ارادتـه الجبـارة ينتـزع حياتـه المهـددة مـن بـين فـكي الـردى قبـل أن يطبقـا عليهـا إطباقـا نهائيـا. وقـد اقتحمـت عـلى الحـمام مملكتـه، واسـترددت حياتـك بعـد أن جـر رجلـك اليـسرى وأوشـك أن يتبعهـا باليمنـى. فهنيئـا لـك الحيـاة والشـباب.

ثـم خرج مـن الغرفة مهرولا كما دخلها مهرولا.

(٤٣)

عندمـا عـاد طريـف إلى غرفتـه بعـد العمليـة الثانيـة وجـد فيهـا مريضـا سـمينا جـدا، في العقـد السـادس مـن عمـره، قـد احتـل السريـر الآخـر، لـه شـاربان عريضـان كشـاربي الحـاج صبحـي في القاهـرة.

رحـب بصاحبنـا ترحيبـا حـارا بالألمانيـة التـي لم يكـن يحسـن سـواها، وكان شـارباه يرقصـان الشارلسـتون عـلى صفحـة وجهـه العريـض كلـما أطلـق شـدقه الواسـع كلمـة مـن كلـمات الترحيـب، فتخـرج مدويـة كالصـاروخ تهـز أركان الغرفـة هـزّا، ولعـل صوتـه المجلجـل أوحـى إلى مخـترع الصـاروخ فكـرة اختراعـه.

ولما سأله طريف عن اسمه قال له إنه يعقوب. فتجهم وجه الشاعر وقطّب حاجبيه، وأخلد إلى السكون المطبق، وغمز الجرس غرب هنيهة.

فجاءت الرئيسة فقال لها طريف بغضب وقد صارت له عليها دالة دون أن يُسمع الضيف الجديد صوته:

- انقليني حالا إلى غرفة أخرى.

- ما السبب؟

- ألا تعرفين أني عربي..

- أعرف جيدا.

- كيف وضعتني مع هذا الرجل إذن؟

- تعمدت أن أضعه في غرفتك لأنه في منتهى الظرافة، وهو عدا عن ذلك من أعاظم مهندسي الدولة.

- لا يمكن أن يكون موظفا عندكم.

- وله؟

- لأنه ليس مسيحيا.

- ومن قال لك ذلك؟

- اسمه.

فضحكت ملء فيها ثم رفعت عقيرتها موجهة الكلام إلى الهر يعقوب.

- يريد الأستاذ طريف الخروج من هذه الغرفة لأنه يظنك من الجماعة.

ولم يكد المهندس العظيم يسمع بتلك العبارة حتى تموج بلحمه المترهل فوق السرير فصال وجال، وتراقص شارباه حنقا، وجحظت حدقتاه غضبا، وراح يهدر كأنه قاذفة قنابل ذات أربعة محركات، دون أن يفهم طريف من أقواله إلا أنه ثائر للإهانة التي لحقت به فأفهمه صاحبنا بعبارة لطيفة أن اسمه يكاد يكون محصورا بطائفة خاصة في بلاده فسرى عنه قليلا وراح يذكر لصاحبنا أسماء آبائه وأجداده المسيحيين حتى كاد يجعل نفسه من سلالة سيدنا عيسى المسيح عليه السلام.

كانت له سكرتيرة شابة جميلة، رشيقة القوام، تأتيه عصر كل يوم بالأوراق الرسمية لتوقيعها، فإذا التقت بزوجه العجوز الرطبة، تبادلا النّظر الشزْر، والشتم المُستتر، وكان ذلك الفصل الأول من الرواية اليومية. أما الفصل الثاني والأخير منها، فقد كان يبدأ بعد ذهاب السكرتيرة بعتاب، وينتهي بخصام وصياح تخرج على أثرها الزوجة غضبى تهدد وتتوعد.

أراد طريف أن يقرب بين قلبيهما بعد أن أصبح صديقا حميما لها وباتا يعدّانه كابن لهما، وهما العاقران اللذان ضاع أملهما في الأنسال بعد أن بلغا من الكبر عتيا: فأدخل في روع صديقه في الغرفة أن زوجه خفيف الظل ووفية جدا له. وأن غيرتها الملتهبة أعظم دليل على شدة

محبتهـا، وأن جـمال المـرأة كامـن في الغـيرة المتطرفـة. وقـال لزوجـه بعـد ظهـر اليـوم التـالي، وقـد جـاءت عندمـا كان زوجهـا في غرفـة التضميـد بـأن زوجهـا يحاسـن السـكرتيرة ليثـير غيرتهـا، ويختـبر محبتهـا، وأنـه لا يفـتر عـن ذكرهـا (ذكـر زوجـه) لحظـة بعـد قفوهـا إلى البيـت مسـاء كل يـوم. حتـى إذا عـاد صاحبنـا إلى الغرفـة رمـى كل مـن الزوجـين الهرمـين نفسـه عـلى الآخـر فعانقـه وضمـه ضـما شـديدا كأنهـما جبـلان مـن اللحـم تلاقيـا. وبعـد ذلـك لا تسـأل عـن القبـل.

كانـوا يجلسـون المـرضى بعـد الرجـوع سـالمين مـن ردهـة العمليـات عـلى إطـار منفـوخ مـن المطـاط السـميك الأحمـر ليمنعـوا التقـرح عـلى إثـر جلوسـهم أسـابيع في الأسرة نائمـين وأيقاظـا. وعندمـا سـأل الهـر يعقـوب الأسـتاذ فِـكْ مسـاعد الجـراح الأعظـم عـن المـدة التـي سـيقضيها مسـمّرا فـوق ذلـك الإطـار، قـال لـه الجـراح: «ثلاثـة أسـابيع» فقـال طريـف الطبيـب عـلى الفـور:

- إلي اقتراح يفيد المستشـفى فائدة عظمى.

- وما هو؟

- إنكـم تقدمـون لنـا غـذاء ممتـازا فيـه كثـير مـن الدجـاج رغـم غـلاء الأسـعار في بلادكـم. وبمـا أن البيـض يحتـاج إلى ثلاثـة أسـابيع حتـى ينقـف فأنـا أقـترح أن تضعـوا ألـف بيضـة فقـط في الاطـار الـذي تحـت جـاري المـر يعقـوب، وأنـا كفيـل لكـم بأخـذ ألـف صـوص منـه بعـد ثلاثـة أسـابيع وفي هـذا مـا فيـه مـن التوفـير عـلى المستشـفى.

فضحـك الجميـع ضحـكا عاليـا متواصـلا لتلـك النكتـة، وسُرّ بهـا الهـر يعقـوب سرورا عظيـما، أقامـه قليـلا عـن الإطـار وأقعـده، فـإذا بالإطـار المسـكين يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة مـن شـدة الوطـأة ويـدوى في أرجـاء الغرفـة كأنـه قنبلـة جعلـت الرئيسـة تندفـع مـن الغرفـة مذعـورة. إلا أن الجـراح لم يتزحـزح مـن مكانـه وقـال لطريـف:

- مـن حسـن الحـظ أننـا لم نكـن قـد عملنـا باقتراحـك وإلا كنـا خسرنـا ألـف بيضـة ثمنهـا ثـروة كـبرى..

ثـم خرج من الغرفة مقهقها.

(٤٤)

سـمح لطريـف بالمـشي في أرض الغرفـة تدريجيـا بعـد انقضـاء ثلاثـة أسـابيع عـلى إجـراء العمليـة الثانيـة، ولم تنقـض أيـام حتـى سـمح لـه بالذهـاب مـع إحـدى الممرضـات أو الرئيسـة للتنـزه في برلـين.

كان، أول مـا مـشى، أشـبه بالطفـل الصغـير حـين يحـاول المـشي أول مـرة فيقـع مـرات قبـل أن يخطـو خطـوة أو اثنتـين. وكان فـرح طريـف بالمـشي لا يقـل عـن فـرح الطفـل، إذ كان يقـوم مـن سريـره إلى مغسـلة الغرفـة مـرارا في النهـار، لحاجـة ولغـير حاجـة، لـكي يـرى نفسـه يعـود إلى المـشي ويتقنـه بسرعـة.

لم تنقطـع مـدام و. وابنهـا السـيد أحمـد (الدكتـور أحمـد الآن) عـن زيارتـه، وكان يزورهـما في بيتهـما ويسـتصحب أحمـد لزيـارة المتاحـف والمتنزهـات

داخل برلين وخارجها. وكان طريف دائما يتحدث إلى كل من يراه في القطارات، أو حافلات الترام، مخبرا إياهم أنه عربي فلسطيني وأن العرب من صفاتهم كيت وكيت، ومن فعالهم ذيت وذيت، بحيث ويحببهم إلى كل قلب، ويجعلهم في المرتبة الأولى بين الأمم والشعوب لا في المرتبة الثالثة عشرة المشؤومة، رغم أنه كان يعتقد في صميم نفسه أن الناس كلهم سواسية كأسنان المشط.

كان طريف يشعر أنه موفد إلى قلب أوروبا من الله ليبشر بنهضة قومه، وليدعو إلى احترامهم ورفع شأنهم في نفوس شعب جعلته العنجهية يشمخ بأنفه ويتسامى على شعوب العالم كافة. وكثيرا ما حرم طريف نفسه من الانغماس في مجون يسيء إلى سمعة قومه وعاداتهم؛ فالخمرة، ولحم الخنزير، والعبث بالدستور العربي للأخلاق كانت مما استطاع تجنبه تجنبا تاما رغم كثرة المغريات، وعودة دم الشباب فائر إلى شرايينه، وكونه غريبا في بلاد لا تعرف شخصيته ولا أسرته. ولكن الله عز وجل يأخذ طرفه ما في الشرق وما في الغرب، وضمير طريف انتقل معه إلى الغرب فهمه ما كان ينهي الناس عنه، ولم ينس أن شعاره كان ولا يزال:

«لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم».

(٤٥)

أعجب طريف أيما إعجاب بفتنة الطبيعة في برلين وحدائقها وبحيراتها وأنهارها، وجمال مبانيها وتنظيم المدينة، وخاصة بعد إدخال التحسينات الجمّة عليها، لتبدو كالعروس في عيون عشرات الألوف من الأجانب الذين أموها لمشاهدة الألعاب الأولمبية التي أقيمت عامذاك. وقد أجمعوا على أنها عروس أوروبا من حيث الجمال، والتنسيق، وفتنة الطبيعة. وحسن الجو. وكان من الطبيعي أن يفتن بها طريف بعد أن قبع لشهور طويلة في أسرة المستشفيات لا يرى غير الجدران الصماء، ولا يشم غير رائحة الموت الكريهة، ولكن شدة وطأة الغربة، وحنينه إلى وطنه شابا تلك المتعة بألم دفين، وشوق مبرح. وأصبح يرى ذلك الجمال الأخاذ، وتلك الفتنة الساحرة، لا تعدل نسمة تهب عليه أيام كان يتفيأ في القدس ظل شجرة الزيتون القائمة على السفح في جوار داره، ولو قيل له إن ماء تلك المدينة العذب القِراح، الذي قلما رأى الناس يشربونه، من ماء نهر الكوثر لما رآه يعدل نقطة ماء من نبع رأس العين الذي يسقي مدينة القدس الحبيبة، أما سماء برلين فكانت أقل صفاء من سماء بلاده الزرقاء؛ وأما قمر فلسطين الساحرة، وشمسها فكانا في نظره أكثر جمالا وإشعاعا من قمر تلك البلاد وشمسها؛ والطيور الصداحة، التي كانت تشجي الكون بأغاريدها الشجية، كان وقع شدوها على مسمعه أقل تأثيرا من الكنار والحسون اللذين كانا في حديقة داره الغناء في القدس، وهديل الحمام لم يكن في إيقاعه ذلك السحر الذي لحمام بلاده الحبوبة؛ وبالإيجاز كانت

حمى الاغتراب قد بلغت منه مبلغا ليس في وسع يراعه العاجز توفيته حقه من الوصف.. أما متاحف برلين، والابداع في تنسيقها تنسيقا عاما فنيا، ونظافة الشوارع، ونشاط الشعب، وفقره، وأخذ الدولة معظم أرباحه استعدادا للحرب، وشدة احترام الغريب لاعتقادهم فيه الثراء، ومضايقة اليهود ماديا وسياسيا، وحرمانهم من بيع الزبدة والبيض، وولع السكان العجيب بجمع الطوابع، وعدم ظهور الترهل والكبر على نسائهم واجتنابهن تزييف الوجه بالمساحيق والمعاجين والإثمد وأحمر الشفاه التي تغير به نساؤنا معالم وجوههن، وكثرة التماثيل في مداخل البيوت والساحات العامة، ونزول الأمطار غزيرة في فصل الصيف، وطعامهم المسلوق الكفْن (الخالي من الملح) الذي لم يستمرئه طريف ووضع السكر على العجة (البيض المخفوق المقلي)، وقهوتهم التي يوضع البن في مائها بنسبة واحد إلى مائة وربما عدّ ذلك منهم تركيزا وإسرافا، فحدث عن كل ذلك ولا حرج. ولا تسأل عن الذعر الذي حل بالقوم عند ما صنع لهم طريف قهوة عربية (يسمونها تركية هناك)، واستهلك في ابريق واحد من البن ما كانوا يضعونه في برميل نظرا لغلاء البن، ولولا أن المرضى كانوا من ذوى الذوق والاشفاق لأصروا على تناول القهوة مركزة، ولعانت خزينة المستشفى من ذلك رهقا.

(٤٦)

في التاسع والعشرين من شهر آب عام ١٩٣٦ التأم الجرح التئاما تاما فسمح لطريف بالعودة إلى بلاده بعد أن نقل إليه فيها عدوى الكيس الطفيلي كلب وشفاه منه هر (Herr) في برلين!

ولكن عند صفو الليالي يحدث الكدر، إذ لم يستطع طريف. العودة إلى بلاده لأنه لم يكن يحمل إلا ماركات مسجلة، والقانون يحظر على الغرباء شراء بطاقات السفر بماركات، بل عليهم أن يدفعوا الثمن عملة أجنبية لكي يبقيها الألمان في بلادهم، ويشتروا بها من الخارج مواد يحتاجون إليها في إتمام برنامجهم الضخم في التسلح. فما كان من صاحبنا إلا أن أرسل برقية يطلب فيها جنيهات إسترلينيه برقيا فجاءته حوالة مالية بعد أيام بمبلغ ضخم ولكنه من ماركات مسجلة إذ لم يفهم القصد من طلبه جنيهات إسترلينيه. فأرسل برقية أخرى مفصلة تأخر جوابها أسبوعا كاملا، كان طريف خلاله متضايقا جدا لأن القوم الذين كانوا يعتقدون أنه من الأثرياء، ظنوا أنه لم يستطع السفر لخلو جيبه من المال مما اضطره أن يشرح لكل من يعرفه قصته ويريه الكمية الوافرة من الماركات المسجلة التي يملكها. ولم يكن يخجل من أحد أكثر من خجله من أطباء المستشفى ومرضاته الذين أفهموه بصورة لطيفة أن عددا كبيرا من المرضى ينتظرون سفره ليخلوا مكانه. وعندما طلب إليهم الخروج إلى نزل (بنسيون) ريثما يصل المال برقيا، أبوا عليه ذلك وأصروا على بقائه عندهم. فشكر لهم لطفهم، وبقي ينتظر ولكن على أحر من الجمر.

وحالما أخذ صاحبنا البرقية المالية اشتري بطاقة السفر من برلين إلى مارسيليا فالإسكندرية، ويمم المحطة في ٩ أيلول (سبتمبر) حيث وجد عددا كبيرا من الأصدقاء والأطباء والممرضات محتشدين لوداعه وبأيديهم باقات الأزهار والهدايا القيمة. وعندما سافر القطار به من برلين التي دخلها قبل أربعة أشهر شبه ميت وخرج منها معافى سليما، سجد على المقعد شكرا لله على آلائه ورحمته، دون أن يعرف أَقِبَل القبلة ولى وجهه أم قِبَل جهة أخرى.

ثم وقف على النافذة يمتع نظره بمرأى الحقول النضرة التي لم تترك فيها يد الإنسان إنشا مربعا واحدا دون استثمار، ودون ارهاق بالأسمدة الكيماوية، ويكحل عينيه بمشاهدة الغابات الكثيفة الخضراء كامله بعد أن أشبعتا برؤية الضمادات والعلاجات وموازين الحرارة، ويملأ أنفه برائحة الطبيعة العبقة بعد أن ملأته رائحة العقاقير الحادة، وقف على النافذة يرقب سرعة القطار الذي قيل عنه إنه ينهب الأرض نهبا فيخيل إليه - يا للأسف - أنه يمشي كالسلحفاة إذا قيس بسرعة شوقه المجنح إلى وطنه وصحبه وذويه، وود لو استطاع مد محرك القطار الكهربائي بتيار قوي من كهرباء لهفته إلى بلاده، وإعارته جناحي شوقه لكى يطير إلى مارسيليا ويختصر الوقت الطويل الذي قدر له أن يقضيه في جوف تلك السلحفاة التي تجتاز المسافات ميلا ميلا وكان يرى الدقائق القليلة التي يقف فيها القطار على المحطات كأنها ساعات طويلة عريضة فتحدثه نفسه بالنزول من القطار والإيعاز إلى سائقه بمواصلة السير أول ما يقف، ولكن العقل يلقنها درسا في فوائد الصبر

وضرورة تسليم الأمور إلى الله عز وجل.

تعب صاحبنا من طول الوقوف على النافذة فرأى أن يريح عضلاته بالجلوس وعندما هم بذلك، والتفت إلى الغرفة التي كانت خالية إلا منه وجد شابا وشابة في ريعان الشباب وأوج الجمال فلم يشعر بدخولهما الغرفة لأن فكره كان سابحا في أجواء الطبيعة الفاتنة، وأذنه مصغية إلى همسات الجمال السافر. كان كل منهما يحمل كتابا بيمينه يقرأ فيه، بهدوء، فإذا تحدث إلى صاحبه بين الفينة والأخرى فبعبارة ألمانية فصيحة موجزة أشبه بالهمس.

ظلا على تلك الحال من الرصانة حتى دخل القطار الأرض الفرنسية فإذا بهما ينقلبان شخصين آخرين لا يعرفان للأخلاق حدودا، ولا للأحياء معنى، كأنهما طائران غردان آثرا الصمت عندما كانا حبيسين في القفص حتى إذا خرجا منه طليقين راحا يغردان ويغردان ليوفيا ما عليهما للموسيقى الشجية من دَيْن.

كان هذا الحادث إيذانا لطريف بدخول الأرض الفرنسية التي شاع عن سكانها انتشار المجون فيما بينهم، وجاء اهمال استغلال الأرض استغلالا وافيا دليلا آخر على أن طريفا دخل بلاد الكسالى الذين بنوا خط ماجينو، وركنوا وراء حصونه إلى الدعة والراحة. أما ثالثة الأثافي من الأدلة على دخول طريف أرض فرنسا الغارقة في الفوضى حكومة وشعبا، فقد كان عند وصول طريف إلى محطة مرسيليا، إذ ما كاد صاحبنا يخرج من بابها حتى قابله عدد من التكسيات، فاستقل

أحدهـا إلى الميناء بعـد أن قـرأ في لوحـة التسـعيرة أن الأجـرة إلى الميناء اثنـا عـشر فرنـكا، وأخـبر السـائق أنـه سـيعطيه ثمانيـة فرنـكات منحـة ولكنـه عنـد الوصـول إلى الميناء أبى إلا أن يدفـع لـه صاحبنـا عـشرة فرنـكات أخـرى جزاء مشـكورا، فلـم يلـب طريـف طلبـه وذهـب إلى شرطـي الميناء وأخـبره فاشـتطاط السـائق في طمعـه، وأجابـه بـكل قحـة:

- أعطه كل ما يطلب أيها السـيد.

ولما رأى طريـف ذراعـي السـائق العمـلاق العَبلتـين وجسـمه الفتـي جـسّ عضـلات زنـده الأيمـن فوجدهـا رخـوة، ورأى أن ثمانيـة عـشر شـهرا مـن العيـاء المتواصـل قـد هـدت جسـمه الفتـي القـوي، وأن انقضـاء بضعـة أيـام عـلى اندمـال الجـرح. لم تعـد إليـه مـن قـواه المفقـودة إلا قليـلا فأذعـن للقـوة، المرة الأولى في حياتـه، ومـد يـده إلى جيبـه ونقـد السـائق الـذي ربمـا كان الملاكـم الفرنـسي الشـهير كارل كار ينتيبـه ثلاثـين فرنـكا دافعـا الـشر بالتـي هـي أحسـن وأمـره للـه.

ولم يكـد السـائق ينـصرف غانمـا حتـى وافى حـمّال فأخـذ الحقائـب إلى حيـث ترسـو الباخـرة Ville de Verdun وبعـد أن تسـاقا سـلمها الطويـل جـاء أحـد موظفيهـا وأخـبر صاحبنـا بـأن عليـه أن ينتظـر بضعـة أيـام ريثـما ينتهـي إضراب النوتيـة، فعـاد بالحقائـب أدراجـه، وأعطـى الحـمّال مـا طلـب ونقـد الشرطـي الأمـين عـشرة فرنـكات ليطلـب لـه بتلفـون الحكومـة سـيارة أجـرة يبـدو أن سـائقها كان عزيـزا عـلى قلـب الشرطـي، إذ قـال لطريـف بلهجـة رقيقـة: «ادفـع لـه خمسـين فرنـكا فقـط أجـرة المجـيء إلى

المحطة والذهاب بك إلى الفندق». فسكت صاحبنا على مضض ولم يُخيّب للشرطي المحترم طلبا.

أقام طريف في مرسيليا ذات الغلاء الفاحش ثلاثة أيام سُرّ بها سرورا عظيم جدا، لأنه اهتدى إلى فندق عربي لبناني فيه مطعم ممتاز يجيد طهى الكبة على أنواعها، ومعظم نزلائه من اللبنانيين الذين نزحوا من إسبانيا على أثر نشوب ثورة فرانكو فيها. ففي اليوم الأول تحدث إلى كل نزيل عربي في الفندق باللغة العربية الحبيبة حتى إذا آنس من الواحد مللا لانصرافه إلى التفكير في تشريده والتهام الثورة الاسبانية تجارته وأمواله، انتقل إلى الآخر وفي لسانه قَرَمٌ إلى التحدث بلغة آبائه وأجداده، وكان يحاول دفع سآمة المستمعين بنكاته العديدة ونوادره الطريفة.

وفي اليوم الثاني ذهب هو وعدد من الأسر العربية اللبنانية لزيارة حديقة الحيوانات في مرسيليا، فسرَّ بها جدا. وفي الحقيقة كان مستعدا للسرور بكل شيء بعد أن وهبت له الحياة، وأصبح يتمتع بمباهجها كلها كبقية الناس. وما كان صاحبنا يعبُر جسر حديقة الحيوانات الذي لا يسمح إلا للعجلات التي لا يزيد وزنها عن بضعة أطنان للمرور فوقه، التفت وهو في وسط الجسر إلى الخاف فرأى سيدة بدينة جدا، امتزجت ساقاها بفخذيها بحيث تعذر التفريق بينهما، كانت تميل ذات اليمين وذات الشمال وبطنها مندلق أمامها كأنها تحمل أربعة توائم في شهرها التاسع.

لم يكد طريف يراها، وهي على وشك عبور الجسر، حتى عاد إليها راكضا وقال لها بالفرنسية.

- مدام! أرجوك الرأفة بي وبطفلي، لأنني لم أكتب حتى الآن وصيتي، وقبل أن أتوسل إليك بالتوقف عن عبور الجسر إلى أن أقطعه اسمحي لي بلفت نظرك إلى الاعلان الذي يمنع أكثر من بضعة أطنان من العبور فوق هذا الجسر.

فقهقهت السيدة البدينة الظريفة قهقهة جلجلت في سماء مرسيليا كأنها هزيم الرعد، وكادت تستلقي على قفاها لشدة أعجابها بنكتة طريف وجرأته. ثم قالت له:

- اطمئن بالا أيها السيد. إني أعدك وعدا سمينا ألا أريم مكان حتى تعبر الجسر مطمئنا على صحتك وشبابك.

فشكرها صاحبنا على لطفها وأطرى حسن ذوقها، ثم عاد أدراجه يعبر الجسر مهرولا.

يعتقد طريف أن كل سمين روحه خفيفة ولم يجد حتى الآن ما زعزع اعتقاده هذا ولعل علماء النفس يكشفون السبب المعقول لملازمة خفة الروح كل سمين.

(٤٧)

في الثاني عشر من شهر أيلول سنة ١٩٣٦ أقلعت الباخرة بروفيدانس (Providence) بطريف وصحبة العرب من ميناء مرسيليا بعد ما كف عمال الميناء عن إضرابهم الذي عادوا إليه بعد إقلاع الباخرة ببضع ساعات.

كان البحر هائجا يلعب بالسفينة الجبارة كما تلعب الريح بالريشة، كأنه عقد اتفاقا مع أصحاب الباخرة ليوفر عليهم اطعام مئات الركاب الذين حملهم هدام البحر على الامتناع عن ترك أسرتهم لتناول الطعام الذي دفعوا ثمنه غاليا.

في صباح السادس عشر من شهر أيلول وصلت الباخرة إلى الاسكندرية بعد أن ظل طريف طويلا يرقب معالم بناياتها بصبر نافذ، وشوق لرؤية ولديه عجيب.

لم تكد قدماه تطآن اليابسة ويخرج من دائرة الجمرك دون الازعاج المعتاد حتى يمم المحطة وأخذ له مقعدا في قطار القاهرة السريع الذي كانت سرعته ضئيلة جدا إذا قيست بسرعة تيار الشوق المندفع نحو ولديه.

قرع طريف باب الدار التي يسكنها ولداه، وهو غير مصدق أنه هي قد عاد لرؤيتهما ففتح الباب واستقبله عدد كبير من أطفال الأهل والجيران بينهم ولده نزار، حمله طريف وطبع على جبينه قبلة حارة،

ثـم بحـث عـن ابنتـه هالـة ليحملهـا إلى جانـب أخيهـا فلـم يجدهـا ولما سـأل عنهـا قيـل لـه إنهـا الطفلـة الجميلـة التـي ركضـت إليـه مـع الأطفـال وتشـبثت بثيابـه، فحملهـا، وقبلهـا كثـيرا، وكان سروره عظيـما عندمـا رآهـا تمـشي جيـدا وهـي في الشـهر الحـادي عـشر مـن عمرهـا.

في اليـوم التـالي، ذهـب طريـف إلى مستشـفى القـصر العينـي فشـكر أطبـاءه، ثـم زار السريـر العزيـز الـذي كان ينـام عليـه فعاودتـه ذكـرى مـا ألم بـه عـلى ذلـك السريـر مـن يـأس وأمـل، وشـقاء وهنـاء. وكـم كانـت خيبتـه شـديدة عنـد مـا تفـرس في وجـوه المـرضي فلـم يجـد بيهـم واحـدا مـن محبيـه الذيـن عرفهـم، ولكنهـم كانـوا مـن حيـث ارتسـام البـؤس والشـقاء عـلى الوجـوه سـواء. فخـرج صاحبنـا حزينـا عـلى أولئـك البؤسـاء أصدقـاء قلبـه، ويمـم مصـح حلـوان فنصـح أطبـاء بوجـوب التخصـص في الأمـراض الصدريـة في أوروبـا مـدة طويلـة، لأن التـدرن منتـشر بـين الأوروبيـين أكـثر جـدا مـن انتشـاره بيننـا، مـما جعلهـم يتقنـون معالجتـه أحسـن مـن أطبائنـا، كـما يتقـن أطباؤنـا معالجـة البلهارسـيا والملاريـا أكـثر مـن أطبـاء أوروبـا لكـثرة انتشـار هذيـن المرضـين في بلادنـا..

(٤٨)

وصل القطار بطريف وأسرته الصغيرة محطة اللد الفلسطينية في صباح الثامن عشر من شهر أيلول (سبتمبر) متأخرا عن موعده المضروب فوجد طريف أخاه الصغير الحنون أبا مازن ونسيبه الشهم السيد أبا عدنان في انتظاره. وكانت معهما سيارة أقلتهم جميعا إلى يافا حيث رمت أم طريف بنفسها على صدر ابها فأشبعته ضما بعد أن روت عاطفتها منه تقبيلا، أما هو، فقد حملها بين يديه، بجسمها الصغير النحيف، كأنها العصفور، ووضعها برفق على أحد المقاعد، ثم ألقى بنفسه على حجرها كما كان يفعل في طفولته. وبعد ذلك نهض فسلم على جميع أهله الذين احتشدوا في بيت أخيه أبا مازن لتهنئته بسلامة العودة، وحدثهم عما جرى له باختصار فحمدوا الله على حسن العافية، وشكروه لإنقاذ طريف من الخطر الماحق الذي أحدق به. والله على كل شيء قدير.

(٤٩)

عاد طريف إلى عمله في القدس بعد أن استأجر دارة فخمة في حي الشيخ جراح وقد طلبت إليه لجنة الأطباء التي فحصته في القدس بعد أن وجدته صالحا للعمل، أن يزور قسم الأشعة في المستشفى شهريا مدة عام واحد للتأكد من عدم عودة الكيس الطفيلي إليه، لأن المعروف عن ذلك الكيس أنه كثير التفريخ، وأنه ربما انتقلت جرثومته إلى الرئة اليمنى وفرخت هناك.

واظب صاحبنا على الذهاب إلى قسم الأشعة أربعة أشهر انقطع بعدها عن الذهاب لأن الاطمئنان تسرب إلى نفسه، ولأن طبيب الأشعة رجح نجاته من طفيليات الكيس نهائيا. وفي آب (أغسطس) عام ١٩٣٧، بينما كان طريف في القاهرة إذا به يستيقظ ليلا على صوت حشرجة في صدره، وما كان أشد رعبه عندما رأى أن رئته عادت تنفث النجيع السخين مع أنه كان ينتظر انصرام الشهر الثاني عشر على شفائه بصبر قلق، ليتأكد نهائيا من أن الكيس الطفيلي اللعين لن يقض مضجعه، مرة أخرى، كما أقضه خلال ثمانية عشر شهرا إبان المرض، وخلال أحد عشر شهرا بعد الشفاء، لم يكن انزعاجه فيها وقلقه أقل من انزعاجه وقلقه زمن المرض، إذ كان يخيل إليه أن كل عطسة، أو سعال، أو زكام، إنما سببها رجوع الكيس إلى صدره، وكثيرا ما كان يقضي الليالي جالسا في فراشه يفري السهد والقلق أعصابه فريا.

بعد يومين أظهرت الأشعة أن في رئته اليمنى كيسين طفيليين صغيرين على حين كانت رئته اليسرى لا تزال متوقفة عن العمل لاقتلاع عصب حجابها الحاجز من جذوره، الأمر الذي يعني أن لا مناص له من الموت؛ لأن الرئة اليمني إذا توقفت عن العمل قليلا بعد إخراج الكيسين منها، قُضي عليه في الحال.

وإن هي إلا أيام ألف بعدها صاحبنا فكرة الموت شاكرا الله عز وجل لأنه أخر أجله أحد عشر شهرا بعد ما كان راضيا بالموت ومستعدا له. ولكن وميضا من الأمل حمله على إرسال صورة الأشعة إلى الأستاذ زاور بروخ في برلين. فأرسل الجراح العظيم يطلبه حالا لإخراج الكيسين

قبـل أن يكـبرا ويسـتفحل أمرهـما.

عـاد إلى القـدس مصمـما عـلى ألا يسـتدين، وعـلى أن يوفـر جاهـدا أقـصى مبلـغ ممكـن مـن المـال في أقـصر مـدة ليحملـه معـه إلى حيـث تتداركـه رحمـة اللـه عـز وجـل، وينـال الشـفاء التـام هكـذا كان قلبـه يوحـي إليـه، أمـا عقلـه ومنطـق الحـوادث، والنـاس جميعـا، والأطبـاء كافـة فقـد كانـوا يعتقـدون أنـه ميـت لا محالـة، لأنـه ليـس لـه رئـة ثالثـة يسـتطيع الاعتـماد عليهـا عندمـا تتوقـف الثانيـة عـن العمـل. إن ثقتـه التامـة بالعـدل الالهـي مـلأت نفسـه بالطمأنينـة تدريجيـا، بحيـث لم يكـد يتجمـع لديـه المبلـغ الـلازم في كانـون الأول للسـفر ودفـع نفقـات المستشـفى مـدة شـهرين حتـى كان إيمانـه بالشـفاء لا يتزعـزع، واعتـماده عـلى اللـه الشـافي الأعظـم لا يوصـف ولا يُحَـدَّ.

(٥٠)

لم يشـأ صديقـه الأديـب الكبـير الدكتـور ا. م. ح. إلا أن يودعـه وداعـا حـارا كان يعتقـد أنـه الأخـير، وأقـام لـه حفلـة شـاي فخمـة جـدا في داره، دعـا إليهـا صفـوة مـن أصدقـاء طريـف الخُلّـص، وكان فيهـا صاحبنـا هـو المبتسـم الوحيـد والمحـدّث الوحيـد، بينـما كان أصدقـاؤه جميعـا كاسـفي البـال سـاهمين، يريـن عليهـم الوجـوم، ويحـز في نفوسـهم فقـد صديـق وفيّ حبيـب إلى قلوبهـم، عرفـوا فيـه صاحبـا يمدهـم بنفسـه، ويدفـع عنهـم الأذى بـكل عزيـز لديـه. ويفتـح لهـم صـدره كأنـه كتـاب يقـرؤون فيـه متـى شـاؤوا.

كان صاحب الدعوة الكريم أشدهم حيرة لأن صفاته العربية حتمت عليه إكرام ضيوفه وإيناسهم، ولكن هيهات أن يجد للوصول إلى مبتغاه سبيلا، فإن فكرة موت صاحبه لم تفارقه لحظة واحدة، ولذلك كان الجميع منصرفين عن كل شيء إلا النظر إلى طريف والتزود من وجهه وصوته إلى أقصى حد ممكن. فما أحسن الصداقة والأصدقاء ومن أصدقائه المخلصين التاجر المعروف السيد ف. م. الذي أصرّ على أن يأخذ ثمن الثياب الصوفية التي اشتراها طريف منه بعد رجوعه سالما، وما ذلك إلا ليبعث الطمأنينة في نفس صديقه، ويؤكد له ثقته التامة بشفائه، كأنما هو مقدم على عملية الزائدة الدودية.

كان لذلك السلوك النبيل أثر طيب في نفس الشاعر زاد في ثقته بالشفاء، وتقليم أظافر الموت التي كان موشكا أن ينشبها فيه. رد الله عادية الردى عن جميع الأوفياء المخلصين.

(٥١)

قبل أن يلقى عام ١٩٣٧ الميلادي نظرته الأخيرة على هذا العالم مودعا، خرج طريف من بيته لتُقله السيارة إلى المحطة حيث يحمله القطار إلى الإسكندرية. ولكنه لم يكد يخرج من بيته حتى عاد إليه لاهثا من شدة الركض، لأنه سمع صوت جارة له قبيحة عوراء تودع أختها وتعدها بأن لا تمكث أكثر من يومين في حيفا. فخاف صاحبنا أن يراها فتكون شؤما عليه وتزف إليه الموت الزؤام، وآثر العودة إلى البيت إلى أن تبتعد عن المكان الذي هو فيه. وكانت عينه عليها جاريتُه

السـوداء الذكيـة «نـدى» وإن هـي إلا دقائـق حتـى عـادت نـدى تقـول بصـوت عـال:

- أخرج يا سـيدي ولا تخف.

ولكـن طريفـا انتظـر دخولهـا إلى البيـت ليفهـم منهـا جليـة الأمـر وعندمـا لم يجبهـا إلى طلبهـا صاحـت قائلـة.

- ركبـت الباص أمامي فاخرج مطمئن البال.

فخـرج صاحبنـا شـاكرا اللـه عـلى النجـاة مـن رؤيـة ذلـك الوجـه الشـئيم الـذي يبعـث الرعـب في القلـوب.

ذهـب إلى الاسـكندرية بالقبعـة لأنـه مسـافر منهـا إلى أوروبـا رأسـا. وقبيـل وصولـه إلى ذلـك الثغـر الجميـل مـرّ أحـد أبنـاء البلـد بحقيبـة طريـف فرمـى جلبابـه الفضفـاض القبعـة التـي كانـت فوقهـا، فـما كان مـن صاحبنـا إلا أن نَهَـرَهُ ووبّخـه عـلى خبطـه في المركبـة خبـط عشـواء فأجابـه صاحـب الجلبـاب عـلى الفـور وقـد ظنـه رجـلا أجنبيـا:

- لقـد ألغيـت الامتيـازات الأجنبيـة يـا حـضرة الخواجـة وأصبحنـا لا نخـاف منكـم ولا مـن دولتكـم فـسرَّ طريـف جـدا بمـا سـمع، وأسـعدته تلـك الـروح الطيبـة التـي رآهـا مشرقـة في نفـس رجـل يمثـل الشـعب المـصري أحسـن تمثيـل، ذلـك الشـعب العـربي الـذي عـانى مـن شرور الامتيـازات الاجنبيـة وكابوسـها المرعبـة مـا لم يعانـه شـعب، وابتسـم صاحبنـا للرجـل ابتسـامة مغريـة ثـم باسـطه بالـكلام وحدثـه بلهجـة عربيـة مصريـة قائـلا:

- أنا يا أخي عربي مثلك ومن سـكان فلسـطين.

- ولماذا تلبـس هـذه القبعة البغيضة إلى كل من في مصر إذن؟

- أنـا مضطـر إلى السـفر إلى أوروبـا، فـإن ذهبـت إليهـم بلبـاس الـرأس العـربي، لفـتُّ الانظـار إلي، وكابـدت مـن زيـادة الأسـعار مـا لا طاقـة لي بـه.

- هـل ألفوا امتيازاتنا في بلادهم؟

- ليـس لنا امتيازات هناك.

- ما السبب؟

فـأراد طريـف أن يقـول لـه – «لأننـا شـعب ضعيـف، فلـم يقـو عـلى ذلـك، ووقـف الـكلام في فمـه لأنـه لم يجـد مـبررا لإظهـار حقيقـة الضعـف في أمتـه رغـم تطرفـه في الصراحـة. إذ كيـف يبـوح بمـا في نفسـه مـن ألم لمـا تبلـوه البـلاد العربيـة مـن جبن كثـير مـن الزعـماء وتكالبهـم عـلى الكـراسي وهـو ذلـك المتفائـل بمسـتقبل أمتـه، والمبـشر بمـا ينتظرهـا مـن خـير عمـير في الآني القريـب.

دارت هـذه الخواطـر في فكـره فربكتـه ولـولا قـدوم مفتـش بطاقـات السـفر لبـاح بـذات نفسـه وأظهـر مـا فيهـا مـن قلـق عـلى مسـتقبل أمتـه فشـكر المفتـش عـلى انقـاذ طريـف مـن وعـورة الإجابـة وأمـره ابـن البـلاد بالانتقـال إلى الدرجـة الثالثـة حيـث تفـرض عليـه بطاقتـه أن يجلـس.

(٥٢)

في ضحى يوم الخميس الواقع في ثلاثين كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٧، ركب الشاعر الباخرة العربية «النيل»، للمرة الثانية دون أن يعروه خوف مما هو مقدم عليه.

كان البحر أول الأمر هادئا فسرَّ طريف بذلك لأنه كان تواقة إلى التمتع بمنظر غروب الشمس وهو في عرض البحر، صعد إلى ظهر السفينة مع ثلاثة من اخوانه العرب المصريين، وإن هي إلا دقائق حتى هاج البحر وماج كأن بركان تفجر في قعره، وراحت السفينة تتأرجح فوقه كأنها سرير طفل تهدهده أمه، وساد الذعر النفوس وشعر طريف كأن يدا حملته وألقت به على درابزين السفينة، فرض صدره أيما رض، وشعر كأن شيئا اعترض الهواء في قصبته الهوائية حال دون الشهيق، فأَحَّ وإذا به يقذف إلى البحر شيئا لم يعرف ماهيته، شعر على أثر خروجه بالراحة وعاد تنفسه إلى ما كان عليه فحمد الله ونزل إلى قمرته تلافيا لصدمة أخرى غير رحيمة قد تُهشّم أضلاعه.

ظل البحر مضطربا يوما كاملا ثم عاد إلى الهدوء وشعر طريف كأن السفينة صارت تمخر بحرا من زيت الزيتون لا بحرا من الماء، فشكر الله على زوال الغمة، وبشر معدته الجائعة بأن الطعام اللذ سيستقر في جوفها. وحافظ البحر على هدوئه حتى نهاية الرحلة.

كان ختام الرحلة مسكا، إذ أتاح الله لطريف فيها دراسة النفسية الشَّيْلوكية عن كثب كما صورها شكسبير، فرأى ما كدسته الوراثة

والعادات من لؤم وخسة في نفوس أولئك القوم الذين غضب الله عليهم فشردهم في أنحاء الأرض، وبثّ في نفوسهم الذعر والقلق.

كان بين ركاب الباخرة شاب غير عربي لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، جميل الطلعة أهيف القد، صحيح الجسم متزوج بسيدة انكليزية كاثوليكية غنية جدا ولا يزيد عمرها عن ستين عاما عدا ونقدا لأنها أعوام حافلة بالأصفر الرنان. رضيت به زوجا لشبابه وجماله، ورضي بها حليلة لثرائها المريض، ولأنه من شعب يعبُد المال، ولكنّها امتد بها العمر بضعة أشهر بعد زواجها. فخاف صاحبنا أن يحال بينه وبين المال، الذي سجله باسمه ليفوز به بعد أن تموت. مدة طويلة تزيد على سنة فيخسر أرباحا طائلة من المشروعات التي منى نفسه القيام بها بعد وفاة عجوزه، وما كان منه إلا أن لجأ إلى أسرع وسيلة للقضاء عليها باختيارها دون أن تصل إليه يد القانون. ولم تكن تلك الوسيلة إلا المخدرات التي انتشرت في مصر انتشارا عجيبا وفتكت بالنفوس فتكا ذريعا.

لم تستطع العجوز المغرمة التخلص من شر المخدرات، وراحت صحتها تتقهقر تدريجيا، وعندما ركبت الباخرة كانت في حالة صحية مخزنة بحيث دخلت دور النَزْع أو كادت في اليوم الثالث لركوبها البحر وقد حتم على زوجها وفاؤه لها، وحَدَبُهُ عليها، ألا يحيط طبيب الباخرة علما بالأمر خوفا من أن يُسعفها فيطيل أيام آلامها ويزيدها عذابا. وما دام مصير كل حي إلى الموت، وما دامت قد شرعت في ذوق سكراته، من الرأفة بها ألا تذوق كأس الردى مرتين. بهذا المنطق المعوج، وبتلك

الأنانية البغيضة كان الزوج يحدث طريف وصحبه العرب دون أن يروا في وجهه أي أثر لتبكيت الضمير أو أي أمارة للخجل مما اقترفت يداه.

ما أشد استعباد المادة إذا تمكنت من الإنسان وما أفتكها بضميره.

وصلت الباخرة إلى جنوى قبل أن تلفظ المسكينة أنفاسها الأخيرة لأن طريفا لم يطق السكوت طويلا على تلك الجريمة الشنعاء فأخبر طبيب الباخرة بالأمر، وحمله على الإسراع إلى إسعافها، ولو جاء ذلك بعد فوات الأوان، رحم الله تلك المسكينة إذا كانت قضت نحبها، وإذا كان الله قد نجّاها من الموت بقدرته الفائقة، فإن طريفا يسأله تعالى ضارعا أن يمد في عمرها خمسين عاما أخرى نكاية بذلك الزوج المجرم. وليس ذلك على قدرته تعالى بعزيز.

(٥٣)

وصلت الباخرة إلى جنوى ظهر الاثنين في ٣ كانون الثاني سنة ١٩٣٨، فنزل طريف وحده دون أن ينزل معه أحد من رفاقه العرب لأنهم كانوا ميممين مارسيليا.

كان الجو باردا فخشي أن تكون المنامتان (البيجامتان) الصوفيتان اللتان معه غير كافيتين لصدّ عادية البرد عنه لأن نسجهما رقيق، فأحب شراء اثنتين أخريين أكثر صوفا وأثقل وزنا ولكنه وجد جميع المخازن مغلقة، وعندما سأل عن السبب قيل له إن للمستخدمين ساعتين ظهرا لتناول الغداء في بيوتهم وللراحة. فانصرف ذهنه إلى المستخدمين في وطنه

الذين يشتغلون في الدكاكين، من الصباح إلى المساء، واقفين على أرجلهم يلبون طلب الناس دون أن ينالوا أكثر من بضع دقائق لتناول الطعام المتواضع الذي يحملونه في مناديلهم المهلهلة، فخرّت تلك الذكري في نفسه، وتمنى أن تعم الثقافة بلاده ليعرف الخادم والمخدوم قيمة الراحة للأبدان وضرورتها.

عاد طريف في الثالثة بعد الظهر إلى السوق ومعه ترجمان إيطالي يحسن الفرنسية، فاشترى له منامتين من أجود الأصناف وأجملها وأغلاها وعندما سأل صاحبنا الترجمان عن نوع نسيجهما فقال له: «انهما من الصوف الممتاز»، ووافقه صاحب الدكان بقوله بالإيطالية (Pura lana) أي من الصوف الخالص. ولكنه عندما ذهب إلى برلين قيل له إنهما من القطن الخالص فلعن الغش والغشاشين وكل من أنبتته ايطاليا المتمدنة التي يحاول طاغيتها إعادة مجد الامبراطورية الرومانية، زاعما أنه بذلك ينشر الأخلاق التي تريد الامبراطورية الإيطالية العظمى أن تزفها إلى عرب شمال افريقيا (المتوحشين؟) والى الأحباش (المجرمين؟)! ألا لعنة الله على الظالمين.

لم يستطع طريف ليس مناماته في مستشفى برلين لأن التدفئة بالبخار تجمل حرارة المكان أشبه بحرارة القدس في الصيف وهذا حمل صاحبنا على شراء من منامتين حريريتين وأمره الله.

(٥٤)

في المساء ركب طريف القطار إلى برلين. وكان في الغرفة وحيدا حتى ميلانو حيث انضم إليه رجل ألماني عليه ماء الوجاهة والثراء تحدث إليه صاحبنا بالألمانية طويلا محاولا بذلك أن يعيد إلى ذاكرته ما فقدته من مفردات.

أثبت الألماني أنه كان نهما، إذ ما كاد طريف الجائع يدعوه إلى تناول الطعام معه حتى أقبل بوجه متهلل يلتهم ما رأى أمامه من طعام فاخر شهي، بحيث لم يُبق من الطعام شيئا ولم يذَرْ. فخاف الشاعر أن يجوع فيما تبقى من الرحلة، ولكن عروبته وحياءه أبيا عليه أن يبخل على ضيف دعاه إلى الطعام وإن كان لم يدعه إلى القضاء المبرم على زاد الرحلة.

عندما وصل القطار إلى مدينة Goldau أراد مفتش البطاقات إنزال طريف من القطار ليلا إلى المحطة والثلج يتساقط بكثرة كأنه القطن المندوف، لأن بطاقته تفرض عليه الركوب في قطار آخر توفيرا لقليل من المال وفره مدير مكتب السياحة الأجنبي في القدس لجيبه، مع أنه أخبر طريفا أن بطاقته تخوله الركوب من جنوى إلى برلين رأسا. قاتل الله الشره المادي.

أبى طريف النزول من القطار وأعلن عن استعداده لدفع أي مبلغ فرض عليه. فرضي المفتش بذلك وأخذ من طريف ما أراد. ولما لم يكن مع الشاعر من العملة الالمانية الصغيرة ما يلزم المفتش، اقترض

خمسة وأربعين فِنكا (٢٠ مليما) من جاره في الغرفة ناجيا بذلك من شر النزول من دفء المركبة إلى صقيع المحطة المغمورة أرضها بالثلج.

بعد ساعات جاع صاحبنا فاشترى من مطعم القطار طعاما له ولجاره وكم كانت دهشة طريف عظيمة، وقد جاء الخادم بالطعام وببقية ورقة عشرة الماركات نقودا معدنية صغيرة، أن يرى رفيقه الوجيه يمد يده إليه طالبا منه ارجاع ما اقترضه منه. فأعطاه طريف ٤٠ فِنكا ولكنه قال له: «إنني دفعت عنك ٦٥ فِنكا» فاعتذر صاحبنا بضعف ذاكرته مع أنه موقن أنه لم يأخذ منه سوى ٤٥ فِنكا وأعطاه عشرين فنكا أخرى.

اغتاظ طريف جدا من تلك الروح المادية المسيطرة على القوم مع أن جاره أكل منه ما تزيد قيمته على ألف فِنك. فأراد أن يقابل اساءته بمثلها، فأكل الطعام الذي جيء به إليهما دون أن يدعو الألماني إلى الاشتراك معه في التهامه. غص طريف مرارا وهو يأكل وحده.

كانت بعض تصرفاته تدل على صغر في عقله، سأل طريفا غِبّ وصوله إلى الغرفة من رحلته الطويلة مباشرة.

- ما مرضك؟

- إنني مصاب بكيس طفيلي في رئتي اليمنى.

- هل تحمل جراثيم السل في صدرك؟

- لا، والحمد لله.

- هـل أنت واثق من ذلك؟

- جدا.

دخلـت رئيسـة الممرضـات آنـذاك وسـمعت آخـر مـا دار بـين المريضـين مـن حديـث فوجهـت الـكلام إلى البولـوني قائلـة:

- قلـت لـك قبـل وصـول الأسـتاذ عـن نـوع مرضـه، وأنـه غـير معـدٍّ وأن صـدره خـال مـن جراثيـم السـل خلـوا تامـا. فاطمـئن بـالا ولا تجعـل القلـق يسـاورك أبـدا.

فسـكت المسـكين عـلى مضـض لأن حالتـه النفسـية كانـت مخزنـة جـدا وكان ايمانـه برحمـة اللـه وقدرتـه عـلى شـفائه مفقـودة.

بعـد بضعـة أيـام، أفهمـه طريـف برفـق أنـه عـالم بنـوع مرضـه وكـثرة الجراثيـم في صـدره، ولكنـه أكـد لـه أن الشـفاء مضمـون بـإذن اللـه بعـد أن يلمـس مبضـع الجـراح صـدره.

كان البولـوني يغسـل وجهـه في مغسـلة الغرفـة التـي يسـتعملها طريـف، وكان البولـوني يمضمـض المـاء في فيـه ويقذفـه في المغسـلة دون أن يتذمـر الشـاعر خوفـا مـن أن يجـرح حـسّ رفيقـه المرهـف أو يزيـد أعصابـه هيجانا. ومـرة أحـضرت الممرضـة الشـاي لطريـف دون أن تحـضر لـه سـكر، فـما كان مـن البولـوني إلا أن أعطـاه وعـاء السـكر الـذي خصّـة المستشـفى بـه لئـلا يختلـط بأوعيـة المـرضى الآخريـن، فلـم يـر الشـاعر بـد مـن أخـذه وأخـذ سـكره منـه متـكلا عـلى اللـه ومسـلما أمـوره إليـه، ولكـن البولـوني - رغـم

كل ذلـك - لم يكـف عـن سـؤال كل ممرضـة وطبيـب بقحـة عجيبـة عـن مـرض طريـف، ونـوع الميكروبـات الموجـودة في صـدره، وإمـكان تسرّبهـا مـن الشـاعر إليـه. فأكـد لـه الجميـع خلـو صـدر طريـف مـن الجراثيـم المعديـة مـرارا، وأخـيرا عيـل صـبر الشـاعر فانفجـر في البولـوني بقولـه صاخبـا:

«لقـد زدتهـا كثـيرا، تحملـت منـك ومـن ثقـل ظلـك مـا لا يمكـن أن يتحملـه أحـد، فاشـكر ربـك لأني رضيـت - أنـا الصحيـح - أن أعيـش معـك في غرفـة واحـدة أيهـا المسـلول».

فسـكت المسـكين مكسـور الخاطـر، ولم يعـد بعدهـا إلى الاستفسـار عـن مـرض طريـف أبـدأ.

فواحـدة بواحدة، والبادي أظلم.

(٥٧)

مـع أن بولونيـا تقـع شرق أوروبـا قريبـا مـن تركيـا التـي تَطعَّـم أبناؤهـا بالكـرم العـربي، فـإن البولونيـين عـلى مـا يبـدو لطريـف - أعـرقُ بخـلا وأشـحُّ يـدا مـن الأوروبيـين قاطبـة.

أخـرج البولـوني مـرة سـفطا فيـه أنـواع مـن الحلـوى والشـوكولاتة. فـأكل منـه بجـرأة عجيبـة دون أن يقـول لطريـف تفضـل. مـع أن الشـاعر حـين طلـب في اليـوم التـالي قدحـا ليصـب فيـه الـشراب لنفسـه، غـصّ بالـشراب الفاخـر، لأنـه لم يعـط رفيقـه منـه، فـما كان منـه إلا أن طلـب قدحـين آخريـن مـلأ الأول منهـما للبولـوني والثـاني للممرضـة حتـى إذا شربـا وضـع

طريف القدح على فمه وأفرغه فيه دفعة واحدة هنيئا مريئا. وكذلك كان شأن الشاعر كلما أكل فاكهة أو حلوى أو شوكولاتة.

أما البولوني فقد رأى أن الذوق يحتم عليه مقابلة طريف بالمثل، ولكن البخل المتأصل في دمه أبى عليه الخسارة التي ربما أقضت مضجعه وأجهزت عليه، فرأى ألا يأكل إلا عندما يخرج طريف من الغرفة. ومرة عاد الشاعر إلى الغرفة والبولوني يضع في فمه آخر لقمة من شيء لم يتبينه طريف، فما كان من البولوني الكريم إلا أن ازدرد ذلك الشيء بسرعة هائلة ليبقى أمر أكله سرا مكتوما وليرد تحية طريف، ولكنه غص به ولولا أن أسعفه الشاعر بكأس من الماء لقضي غصصا.

زار البولوني مرة أخ له جاء من وارسو إلى برلين لأعمال تجارية وكان من الثراء على جانب عظيم. جاء لعيادة أخيه صفر اليدين دون أن يعتريه أي خجل، ولم يتردد في مد يده إلى طبق الفاكهة الذي يُحضره المستشفى لمرضاه عصر كل يوم والتهام معظم ما فيه مع أن أخاه كان في حاجة ماسة إلى الغذاء. فلعنة الله على البخلاء أجمعين.

(٥٨)

ذهب طريف في اليوم التالي لوصوله إلى برلين، إلى غرفة الأشعة حيث رحب به الأستاذ شاوول العربي العظيم أجمل ترحيب وصور له صدره بالأشعة نظريا وعمليا وقال له:

أبـشرك بـأن الأشـعة النظريـة تظهـر رئتيـك سـليمتين مـن الأكيـاس الطفيليـة، وأرجـح أن الأشـعة العمليـة سـتؤكد لنـا ذلـك أيضـا، فـما عليـك إلا أن تنتظـر حتـى صبـاح الغـد ليكـون الفيلـم هـو الحكـم الفصـل في هـذا الشـأن.

فشـكره طريـف وانـصرف عائـدا إلى غرفتـه وقدمـاه تـكادان تطـآن الهـواء، لا الأرض، لشـدة سروره إذ شـعر أن عـبء التفكـير في الكيـس الطفيـلي والمـوت الماحـق الـذي كمنـت نواتـه في صـدره، قـد إنـزاح معظمـه عـن كاهلـه فأصبـح أخـف وزنـا وأرشـق خطـوا.

لم ينـم طريـف ليلتئـذ انتظـارا للنتيجـة النهائيـة التـي سـيقرّها الفيلـم. وعندمـا جـاء مسـاعد زاور بـروخ الأيمـن الاسـتاذ «فـك» العظيـم، وقبـل أن يتخطـى عتبـة الغرفـة، بـادره طريـف بالسـؤال قائـلا:

- بشرني يا دكتور.

- أهنئـك بـزوال المحنـة وبالنجـاة مـن المـوت، لأن الفيلـم الـذي أخـذ لصدرك عندنـا يثبـت سـلامة رئتيـك وخلوهـما مـن كل أثـر للأكيـاس الطفيليـة. أمـا الـذي يحيرنـا هـو أن الفيلـم الـذي أرسـلته إلينـا مـن القـدس يظهـر كيسـين صغيريـن في رئتـك اليمنـى. فهـل لفظتهـما مـن فيـك بعـد إرسـال الفيلـم إلينـا مـن القـدس؟

- هـو ذاك يـا دكتـور، فقـد هـاج البحـر وتَرَجّحـت بنـا السـفينة حـين كنـت عـلى ظهرهـا، وقذفتنـي عـلى درابزينهـا فَرُضَّـت أضلاعـي وشـعرت أني لفظـت شـيئا إلى البحـر لم أتبـين كنهـه.

- لقد لفظت الكيسين يا صاحبي ونجوت من شرهما. ولكن الكلمة النهائية هي الأستاذ زاور بروخ. انني أهنئك، على كل حال، لأنك نجوت من شر مستطير.

ثم خرج قبل أن يسمع شكر طريف وثناءه المستطاب.

بعد أسبوع تماما، أي يوم الخميس في الثالث عشر من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٩، سمح لطريف بمقابلة الاستاذ زاور بروخ الذي لم يكد يلقي نظرة خاطفة على الفيلم حتى قال للمريض.

- أهنئك على النجاة من خطر ماحق. في وسعك أن تعود إلى وطنك الآن، وإن استطعت أن تمكث عندنا ستة أشهر أخرى دون أن تبدو خلالها أية آثار للأكياس الطفيلية في جسمك ضمنا لك النجاة من شرها نهائيا.

فبرقت أسارير طريف، وتبين البِشرُ في وجهه وقال:

- أقدم لك شكري الجزيل، وإني أوثر العودة إلى بلادي على الانتظار طويلا هنا، وإذا نُكبت بظهور الأكياس مرة أخرى خلال الأشهر الستة المقبلة عدت إليكم حالا.

- حسنا. ولْيكلأك الله بعين عنايته فودعه طريف بحرارة وقد أخذت منه هزة الطرب أي مأخذ.

(٥٩)

بعد أربعة أيام غادر طريف المستشفى إلى النزل (البنسيون) الذي يقيم فيه صديقه الاستاذ م. م. حيث حجزت له فيه غرفة ممتازة.

كانت صاحبة النزل أرملة حفيد الفيلسوف الألماني الكبير فخته وكانت قصيرة سمينة تحب المال حبا جمّا، وترى في اكتنازه سعادتها العظمى. أما لعطفها، ونظافتها، وقيامها بواجبها فقد أوفت بها على الغاية، وجعلت منزلها نعيما مقيما.

أقام طريف خمسة أيام في النزل زار خلالها مع صديقه أهم المتاحف ودور الآثار، وأماكن برلين الشهيرة التي لم يكن قد رآها في رحلته الأولى كأن الله عز وجل هيأ له رحلة الشتاء ليرى فيها ما فاته مشاهدته في رحلة الصيف.

وفي تلك الأيام الخمسة غمره أصدقاؤه العرب بدعواتهم السخية ونبلهم الفذ بحيث جعلوا وقته مشغولا حتى منتصف كل ليلة. ولولا إصراره على السفر لحفل برنامجه بالحفلات والدعوات زمنا طويلا.

نحن ننظر إلى الأقليات في بلادنا نظرة اعجاب، ولا ننظر إلى الأقليات العربية في عواصم الغرب تلك النظرة العربية من التقديس. والأقليات في بلادنا مثقفة ثقافة عالية بينما لم تتح الظروف الجائرة لأبنائنا مثل تلك الفرص التي أتيحت للأقليات، ورغم كل ذلك نريد أن يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

(٦٠)

أعطى طريف مدام فختـه مبلغـا مـن المـال لتهيئ لـه زاد الطريـق مـن برلـين إلى بخارسـت عاصمـة رومانيـا وعـين لهـا العـدد الـذي يحتـاج إليـه مـن كل نـوع. وأوصاهـا بفتـح قواريـر الـشراب لأنـه لم تكـن لديـه بريمـة يفتـح بهـا صممهـا.

في الثـاني والعشريـن مـن كانـون الثـاني (يـوم السـبت) غـادر طريـف برلـين إلى بخارسـت وقـد شـيعه إلى المحطـة لفيـف مـن أبنـاء قومـه الأبـرار.

ركـب القطـار وشـوقه إلى بـلاده وولديـه وأهلـه، لا يوصـف لأنـه كان يخـشى أن يعـود جثـة هامـدة فـإذا بـه يعـود شـعلة حيـة مـن السـعادة والحيويـة والمـرح والهنـاء يلهـب شـهية صاحبنـا للطعـام، إذ لم تمـض سـاعتان حتـى كانـت معدتـه قـد هضمـت طعـام الصبـاح، فتنـاول مـن حقيبـة الـزاد بعـض الشـطير والفاكهـة وقـارورة مـن الـشراب وأشرك معـه بعـض مـن كان في غرفتـه مـن السـفر لأن قسـما منهـم اعتـذر عـن مـده. وكـم كانـت دهشـته عظيمـة حـين وجـد أن الـشراب مشـوب بكثـير مـن المـاء. فصـب اللعنـات عـلى صاحبـه النـزل عابـدة المـادة وعجـب أن تعهـد سـيدة مثقفـة كمـدام فختـه إلى ذلـك الأسـلوب مـن الغـش، وتنحـط إلى مثـل تلـك الدركـة مـن الدنـاءة.

وفي الحملـة الثانيـة التـي شـنها طريـف عـلى الطعـام، وجـد أن السـيدة المحترمـة قـد اقتـصرت عـلى شراء ثلـث الكميـة المطلوبـة مـن الشـعير والفاكهـة، واحتفظـت بمـا تبقـي مـن المـال لنفسـها. وفي هـذه المـرة لم تقتصر

اللعنات على مدام فخته وحدها بل التفت إلى الماضي فلذعت الآباء والأجداد وخاصة الفيلسوف فخته، ثم امتدت إلى المستقبل فنالت من كل الذين سينسلهم أولادها وأحفادها ولو لم يكن الأستاذ زاور بروخ ومدام وهبه من الألمان، لما نجا الشعب الألماني كله من حملة طريف الشفوية الشعواء.

قاتل الله المال، ما أشد إذلاله للنفوس واستعباده إياها إذا تمكن منها وأصابتها جرثومته.

(٦١)

صعد إلى القطار من مدينة كيرا كوف، المدينة البولونية الشهيرة، رجل حسن الهندام فارع القوام وحل في غرفة طريف، فاستأنس به الشاعر لأنه كان يحسن الإنكليزية والرومانية ولأنه ذاهب مثله إلى بخارست فكونستانزا. شكر الشاعر الله لأنه هيأ له مثل ذلك الرجل ليكون دليله في مدينتين يجهلهما ويجهل لغتهما.

وصل القطار إلى بخارست عاصمة رومانيا يوم الأحد، فنزل فيها الشاعر مع رفيقه الجديد الذي حمل طريفا على أن يدفع إلى موظف المحطة أجرة وضع حقائبهما كليهما في غرفة الحقائب.

كانت بخارست مغمورة بالثلوج، وكان منظرها ومنظر القصر الملكي الفخم فيها من الفتنة بمكان. أما الخدمات التي قام بها الرفيق

الجديد لطريف فقد كانت قيّمة نال في النهاية عليها أجرا شهيا في مطعم المحطة دعاه إليه الشاعر.

وفي المساء انطلق القطار إلى كونستانزا، الثغر الروماني الجميل على البحر الأسود، فبلغها قبيل منتصف الليل ثم نادى الكيرا كوفي بالرومانية سائق سيارة وضع فيها حقائبهما كليهما وأسمى له فندقا ثم اندفعت إليه السيارة بهما اندفاع الريح العاصفة لخلو الشوارع من الناس وعندما وقفت السيارة أمام باب الفندق، نزلا منها ودفع طريف للسائق الأجرة وفوض إلى رفيقه أمر تدبير غرفة يستلقي بها. ولما كانت الغرف ذات السرير الواحد مشغولة كلها فقد اضطر طريف إلى النزول وحده في غرفة ذات سريرين على أن يدفع للفندق أجرة سريرين. ثم ودعه رفيقه وذهب لينام في دار أخيه المقيم في كونستانزا.

وفي الصباح عندما استيقظ الشاعر وجد شخصا قد حل بالسرير الآخر. ولما اقترب منه رأى أنه رفيق السفر نفسه، فآلى على نفسه. ليوبخنه عندما يصحو من نومه توبيخا عنيفا على فعلته تلك وكذبه. ثم خرج طريف لغسل وجهه، ولما عاد إلى غرفته بعد بضع دقائق وجد الرجل قد اختفى من الغرفة فتفقد متاعه وجيوبه فوجد أنها لم تنقص شيئا. فلبس ثيابه ونزل إلى مدير الفندق فوجد أنه يحسن التركية، وعندما سأله طريف عن الكيرا كوفي أجابه:

- أي كيرا كوفي تعني؟

- الرجل الذي كان معي أمس.

- إنه سكرتيرك يا سمو الأمير.

- سمو الأمير ومن قال لك إني أمير.

- لقد أفضى إليّ سكرتيرك بكل شيء يا صاحب السمو المتنكر.

- إنني لست أميرا وليس لي سكرتير.

- تأكد يا صاحب السمو أنني لن أفشي للناس حقيقة هويتك لأن القصد الذي توخيته من تنكركم وجيه جدا.

فكاد طريف يجن جنونه من تلك الألغاز التي أحاطت به، وبعد لأي استطاع اقناع مدير الفندق بحقيقة هويته وصلته بذلك الأفاك. ولولا مرور سائق السيارة بالفندق وسؤال المدير إياه عن الكيرا كوفي لما عرف طريف أنه من الشعب الذي يعبد المال من كونستانزا وأنه مشهور بالنصب والاحتيال. حمد الشاعر الله لأنه جعل المسألة تقتصر على غرامة مالية بسيطة مع أن حقائبه كانت حافلة بالهدايا الثمينة.

قاتل الله الاحتيال والمحتالين.

(٦٢)

أقلعت الباخرة رومانيا بطريف ليلا من ميناء كونستانزا يوم الاثنين في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٣٨، وقد كادت تغرق مرارا لولا لطف الله لأن البحر الأسود كان هائجا جدا وهو مشهور بأنوائه المرعبة، وقد ظل الركاب بضع عشرة ساعة في محنة كبرى وخوف عظيم.

وقد هل طريفا أن يموت غريقا بعد أن نجا من الموت مريضا بأعجوبة من أعاجيب القدر، ولكن يد الله التي امتدت إليه برا فأنقذته، لا يعجزها أن تمتد إليه بحرا فتحييه وترده إلى ولديه وأهله ووطنه سالما. وهكذا كان، إذ أذن الله تعالى أن تنجو السفينة بمن فيها من شر مستطير، وتصل إلى البوسفور الجميل، الذي جعل البحر يهدئ ثائرته، إجلالا لجماله وبهاء طلعته.

إن الله لم يجعل البوسفور الفاتن مخرج البحر الأسود الذي يرى ممتطيه الموت أشكالا وألوانا إلا ليشكره الناس على آلائه ويحمدوه لأنه أوجدهم في دنيا كلها سحر وفتون. ومن لم ير البوسفور بعد نجاته من أنواء البحر الاسود، لم ير من مفاتن الدنيا شيئا.

نزل صاحبنا في استانبول فذهب توا إلى جامع السلطان أحمد حيث صلى لله تعالى ركعتين شاكرا إياه على إنقاذه من براثن الردى. ثم زار طولمه باغجة، ويَرَه باتان سراي، وطوب تبوسرابي وغيرها من الأماكن الأثرية وتفرج على أسواق الأستانة الجديدة والقديمة وعاد قبيل

منتصف الليل إلى الباخرة حيث نام نوما عميقا مريحا أعصابه من شر الأرق الذي داهمه في الليلة السالفة الليلاء.

وفي التاسعة من صباح اليوم التالي، أقلعت الباخرة من اسطنبول فوصلت إلى مدينة بيريه اليونانية بعد إحدى وعشرين ساعة، وهناك نزل طريف مع بعض ركاب الباخرة وذهبوا توا إلى القطار حيث أقلهم إلى أثينا الجميلة، التي سحرهم هندسة بناياتها، وشوارعها، وتماثيلها وآثارها القديمة الشهيرة كالا كروبول، والمدرج الخطابي، والغرفة التي سجن فيها سقراط الحكيم وشرب السم..

ثم عاد طريف ومن معه إلى بيريه فجالوا في شوارعها، وآبوا إلى الباخرة رومانيا التي أقلعت بهم في المساء ميممة شطر الاسكندرية وسرور صاحبنا بعودته سالما يجل عن الوصف والتبيان.

كان البحر هادئا أول الأمر، ولكن عندما مخرت الباخرة قريبا من جزيرة كريت هاج البحر وماج، وقيل لطريف إن البحر حول كريت يكون دائما هائجا فقال على الفور:

- يجب أن تسمى كبريت لأنها تؤجج غضب البحر فيثور،

ومما علق بذاكرة طريف رؤيته رومانيا ضخما كالفيل في الباخرة مسلخ بضعة أيام لم يحلق لحيته الكثة السوداء فنبتت في وجهه العريض كأنها المسلات فاحتال عليه الشاعر حتى أخذ له صورة بالآلة التي

معه لكي يخيف بها ولديه إذا ما عربدا في البيت، وليريهما نموذجا من الضباع الانسانية.

وأعجب ما رآه صاحب المذكرات في الباخرة رومانيا، هو اشتطاط موظفيها ونُدلها في طلب المكافأة المالية (البقشيش). فإذا طلب أحد الركاب ماء مثلا ولم يراضِخْ من يأتيه به عددا من اللايات (الملاليم) مات ظمأ. وقد اضطر طريف إلى إعطائهم مقدار جنيهين في رحلته تلك لكي يلبوا طلبه ويحسنوا خدمته.

وإياكم والبواخر الرومانية أيها العرب!

(٦٣)

في السابعة صباحا من يوم السبت الواقع في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩٣٨، وصلت الباخرة رومانيا إلى ميناء الإسكندرية. ولما حاول الركاب النزول منها؛ رأوا صفوفا متراصة من الخدم في مخارجها تحول دون نزول الركاب الذين لا يعطونهم، رغم أنوفهم، مبالغ كافية من المال جزاء إيصالهم إلى البر سالمين. ولما رأى طريف أن الزوغان من أولئك المتسولين النصابين محال، أعطى رئيسهم جنيها ليتقاسمه وزبانيته فأفسح له المجال وخرج مرفوع الرأس يلعن رومانيا والرومانيين.

وعندما وطئت قدماه اليابسة، نادى حوذيا واتفق معه على إبلاغه المحطة بخمسة عشر قرشا مضيفا إليها خمسة قروش أخرى لوصوله سالما. ولكنه عربد في المحطة وطلب عشرة قروش أخرى أجرة تهنئته

الشاعر بالوصول سالما، فرأي طريف أن يشترى سكوته بعشرة قروش فأعطاه ما أراد قائلا:

- يبدو لي أن أمك رومانية.

وانصرف مسرعا لئلا يصب عليه الحوذي الأشعبيّ قاموس شتائمه.

بلغ القاهرة عصرا، فكان كمن قد أضاع ولديه ولقيهما من جديد، مما دعاه إلى ابقائهما على ركبتيه ساعتين ويمناه ملتفة حول نزار واليسرى حول هالة، وقد أسندا رأسهما إلى صدره كأنهما كانا في خوف ثم ردت إليهما الطمأنينة. ما أجمل الأولاد وقد صدق الله تعالى حين قال في كتابه العزيز: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

في اليوم التالي (٣٠ كانون الثاني) غادر طريف وأسرته القاهرة مساء إلى القدس حامدا الله عز وجل على رحمته وإحسانه وعاد إلى التدريس بهمة قعساء، ونشاط جديد.

شعر طريف بالمرض في ربيع عام ١٩٣٥م. وها هو ينهي كتابة مذكراته في ربيع عام ١٩٤٦ م. (٢١ نيسان)، دون أن تعود الأكياس الطفيلية إلى مناوشته، فالحمد لله أولا وآخرا. والهناء جزاء الصابرين.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي